عبده عثمان محمد

الأعمال الشعرية الكاملة

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

مكتبة اليمن الإلكترونية

عبده عثمان محمد

الأعمال
الشعرية الكاملة

تصميم الغلاف: الفنانة التشكيلية
سمر فؤاد الأغبري

عبده عثمان محمد
الأعمال الشعرية الكاملة
مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة – ش الشيخ معروف متفرع من شارع
شمبليون – عمارة ج - وسط البلد
تليفون: +20225743534
البريد الإلكتروني : arweqhhhh@gmail.com

رقم الإيداع: 2022/14397

الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-797-434-9

بالتعاون مع بورصة الكتب للنشر والتوزيع
25 ش شريف - القاهرة

الطبعة الأولى
2023
أروقة
للدراسات والترجمة والنشر

عبده عثمان محمد

الأعمال

الشعرية الكاملة

مكتبة اليمن الإلكترونية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

مكتبة اليمن الإلكترونية

توثيق /

فايز محيي الدين البخاري

محتوى الكتاب لا يعبّر بالضرورة عن رأي المؤسسة وتوجهها.

عبده عثمان محمد

الشاعر والوطن

" كانت الساعةُ...
لا أدري ولكنْ
من بعيد شدَّني صوت المآذنْ
ذهل الصمتُ.. تداعتْ في جدارِ الليلِ ظلمةْ.
وتمطَّى في دمائي حبُّ شعبٍ
ثمَّ أقعى في جروحي جرحُ أمَّةْ.

مثَّلت قصيدة " ردفان والقرصان" للرائد عبده عثمان محمد، من ديوانه الجدار والمشنقة، المصافحة الأولى لي . شخصيًا . ولجيلي وللجيل الأسبق عليه، لعالم عبده عثمان الشعري والوطني والإنساني، وقد أخذتني تلك القصيدة لأسباب لعل أهمها شكلها المختلف عمَّا اعتدنا معرفته من شكل كلاسيكي للشعر، وموسيقاها المحببة للنفس، وموضوعها الوطني اليمني الملتبس بالعام، وسرديتها الواضحة وميلها إلى التسلسل، إلى غير ذلك من ميزات أستطيع سردها اليوم، ولم أفكِّر فيها من قبل. ولقد صار لهذه القصيدة الكثير من التأثير كما تبين لي من خلال تتبعي لاحقًا بعد سنوات طويلة؛ إذا قلدها عدد من الشعراء، لا سيما، ويا للمفارقة، بعض المتباينين فكريًّا وسياسيًا مع عثمان من شعراء التيار الإسلامي في اليمن، وجملة من دعاة الالتزام الشعري الديني.

ليستْ " ردفان والقرصان" القصيدة الوحيدة التي عرفت لعبده عثمان وانتشرت وجرت بها الألسن، (لا علاقة للأمر هنا بشعره الغنائي)، بل نال كثير من نصوصه الذيوع والجريان على الألسن، والاستشهادات، وعلى رأسها قصيدته" بلادي" خاصة أنه . الشاعر . من الشعراء الذين يحفلون كثيرًا بالموضوع، وينفعلون بالواقع والقضايا العادلة. على أنَّ ريادة عبده عثمان لم تكن شعريَّة فحسب، بل تعددت جوانب شخصيته الخلَّاقة

إلى شتَّى الاهتمامات والأنشطة والفعاليات، والمواقع، والمواقف؛ فهو الشاعر والكاتب والنقابي، والسياسي، والديبلوماسي، وواحد من أهم أوائل التنويريين اليمنيين.

"ولدَ عبد عثمان عام 1936م في منطقة الزبيرة-قدس بمحافظة تعز؛ إذ قرأ القرآن ثمَّ التحق بمدرسة بازرعة في عدن حيث درس الابتدائية وجزءًا من الثانوية قبل مغادرته إلى القاهرة وإنهائه الثانوية، والتحاقه بكلية دار العلوم في القاهرة التي انصرف عنها ليلتحق بمعهد الدراسات العربية، سافر بعدها إلى مدينة لايبزج بألمانيا؛ لإكمال دراساته، كما درس في كلية الحقوق بجامعة بغداد، وبعد عودته إلى اليمن عمل في إحدى البرامج التي كانت تذاع قبل الثورة، أما بعد الثورة فعمل مستشارًا ومعلِّقًا سياسيًا في إذاعة صنعاء عام 1962م، ثمَّ مديرًا لمكتب الخارجية في مدينة تعز.

غادر بعد ذلك إلى أمريكا حيث حصل على منحة للدراسة في جامعة Pittsburgh عام 1965، وحصل على دبلوم في الإدارة العامة، ثمَّ عين أول وزيرٍ لشؤون الوحدة عام 1967م.

تنقل عبده عثمان سفيرًا بين عدة دول: أديس أبابا "1968 ـ 1970"، والصين "1970 ـ 1979"، بغداد " 1981 ـ 1983"، موسكو " 1983 ـ 1990"، ألمانيا "1990 ـ 1997" وكان عميدًا للسلك الدبلوماسي العربي والأجنبي في الصين لأكثر من خمس سنوات، وقد عاد إلى أرض الوطن عام 1997، وأصبح عضوًا في مجلس الشورى، لينتقل إلى رحمة الله في الثاني عشر من يونيو 2017م في القاهرة.

لم يكن عبده عثمان فاعلًا شعريًا، كما سبقت الإشارة وهو ما سنأتي عليه، بوصفه أحد الذين انتقلوا بالقصيدة العربية من العمود إلى التفعيلة، فحسب، بل هو واحد من الثوَّار، ورواد التحديث على كل المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية، وهو يحسب زمنيًا، ومن جانب الأدوار الوطنية اليمنية الأولى على حركة الطلبة اليمنين بمصر، الحركة صاحبة التأثير الكبير على شكل السياسة والحياة اليمنية بعد ذلك، وقد تمثَّلت البنية المؤسسية لهذه الحركة في ما عرف بـ" رابطة الطلاب اليمنيين"،مصر، وتشكَّلت بنيتها التنظيمية" من شكلين رئيسين: الأول عبارة عن تنظيم نقابي لرعاية مصالح الطلاب واتخذ شكل

رابطة الطلاب اليمنيين، وإلى جانب ذلك كان هناك الهيكل السياسي للحركة المتمثل في "مؤتمر الطلاب اليمنيين الدائم"، ولجنة تنفيذية لمتابعة النشاط وتنفيذ القرارات[1]".

جاء عبده عثمان من اليمن إلى مصر لينظمَّ إلى بعثة المملكة المتوكلية المنقولة من لبنان" بعثة الأربعين"، بعد مقتل الإمام يحيى 1948م، ولجوء الفضيل الورتلاني الجزائري الجنسية إلى لبنان.

يعدُ عبده عثمان، كما يذكر أحمد القصير، من الأربعة الأوائل الذين دعوا إلى تأسيس رابطة الطلاب اليمنيين في حلوان عام 1952م، أي قبل التأسيس الفعلي بأربع سنين، وهؤلاء الأربعة هم:عبده عثمان، طاهر رجب، إبراهيم صادق، وخالد فضل منصور، فبناء على دعوة مجموعة الأربعة هذه انعقد عام 1952م اجتماع في دار البعثة اليمنية لمناقشة تأسيس رابطة للطلاب، إلا أن هذا الاجتماع فشل لسببين أحدهما عدم نضج الفكرة والآخر الزوبعة التي أثارها الطالب عبد الله الكرشمي بقوله إن اليمني هو من يدفع الضرائب للإمام[2].

لم ييأس عبده عثمان ورفاقه بعد فشل الاجتماع سالف الذكر، بل واصلوا جهودهم لتأسيس رابطة تجمع كل أبناء اليمن الطبيعي، حتى تبلورت الفكرة بشكل أفضل، وأنضج، وتأسست الرابطة فعليًا عام 1956م، وانضم إليها جميع الطلاب اليمنيين من كافة التوجهات وكآفة المناطق الجغرافية في اليمن، وكان محمد عمر حسن إسكندر السقاف أول رئيس لها، وضم مجلس إدارتها في تشكيلها الأول: عبد الله المقطري، وعبد الله الكرشمي، وفؤاد قائد محمد، ومحمد أنعم غالب، ومحمد علي الشهاري.

أتى التأسيس الحقيقي لرابطة الطلاب اليمنيين بالقاهرة بعد نضج تجاربهم حول القضايا العربية عامة، واليمنية خاصة، وإفادتهم من التجارب السابقة لحركة الأحرار اليمنيين والاتحاد

---

1 – أحمد القصير، إصلاحيون وماركسيون، رواد التنوير في اليمن، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، الطبعة الأولى، 2016م، صـ 138. وأصل ملحق " مؤتمر الطلاب اليمنيين الدائم بمصر 1956" ورقة تقدم بها الدكتور القصير إلى ندوة جامعة عدن،2001م المعنونة بـ" وحدة الأرض والإنسان في اليمن عبر التاريخ".

2 – نفسه، صـ 139.

اليمني، وحركات التحرر العربي المعروفة، فعقدت الرابطة في 22 يوليو 1956م، العيد الثالث لقيام الثورة المصرية، مؤتمرها الأول في مقر رابطة الطلاب الفلسطنيين، بعد موافقة الحكومة المصرية، وحضر المؤتمر ياسر عرفات، والشهيد صلاح خلف " أبو إياد"، ومندوب عن الرئيس جمال عبد الناصر، وقد انتخب المؤتمر لجنة تنفيذية من سبعة أشخاص لمتابعة تنفيذ قراراته، وهم : أبوبكر السقاف" سكرتيرًا عامًا، وإبراهيم صادق، سعيد الشيباني، عبده عثمان محمد، محمد أنعم غالب، محمد عبد الله العصار، ومحمد عمر حسن إسكندر، وقد لعب معظم أعضاء المؤتمر أدوارًا كبيرة وأساسية في المؤتمر.

لم ينقضِ المؤتمر حتى بدأ الدور الحقيقي والفعلي للرابطة، فقد وضع البيان رقم واحد الصادر عن اللجنة في الخامس من أغسطس 1956م التصورات التي أصبحت جوهر طموحات الحركة الوطنية اليمنية. ووسعت الرابطة ومؤتمرها الوطني المهم ولجنته التنفيذية الاهتمامات والأدوار، فبحسب عبده عثمان محمد، في مقابلة أجراها معه عبد الله الرديني في العدد 48، من مجلة الكلمة/أكتوبر 1978م، لم يكن العمل مقصورًا " على الجهات اليمنية والعمل الطلابي فقط، بل أيضًا قامت اللجنة التنفيذية بالعديد من الاتصالات مع السياسيين العرب سواء في مصر أو غيرها، مع رجال السياسة والفكر موضحةً لهم من خلال اللقاءات وطرح القضايا السياسية أو عن طريق البيانات والدراسات لقضية الشعب اليمني..."، وكانت الوحدة اليمنية محورًا تتركز حوله التوجهات السياسية للمؤتمر الدائم ولجنته التنفيذية.

مثَّلت رابطة الطلاب اليمنيين التطور الطبيعي للحركة التحررية اليمنية منذ بداياتها الأولى وارهاصاتها الأسبق مرورًا بمرحلة عدن والاتحاد اليمني والجمعية اليمانية الكبرى، وثورة 48، كما حاول هذا الكيان اليمني الواسع الحوار مع الكيانات اليمنية الأسبق، لا سيما المؤسسة منها، ويذكر عبده عثمان، في المقابلة المشار إليها سابقًا، أنَّ اللجنة الدائمة المنبثقة عن المؤتمر الطلابي لم تتمكَّن من تحقيق دعوة التلاحم في العمل الوطني بين تنظيمي الاتحاد اليمني ورابطة أبناء الجنوب العربي، في ضوء قرارات المؤتمر"، ومع ذلك ناضلت هذه الكيانات جميعها لأجل

قضية التَّحرُّر، ولم تكن معايير الانتماء لأي منها بتلك الصرامة والمغالاة؛ لا سيما أن بداخل كل كيان منها انتماءات متعددة، كما تفاعلت الحركة الثورية والتحررية اليمنية بمصر، في إطارها العام مع مختلفات الاتجاهات العربية والعالمية، فتميَّزت رابطة الطلاب اليمنيين، رغم حداثة ولادتها، باتساع هيكلها الطلابي، والثقافي، ويكفي أنَّ ننظر في بعض بعض أسماء مؤسسي الرابطة لنرى موقعهم من الخارطة اليمنية بعد ذلك، فهناك أبو بكر السقاف الفيلسوف والمفكر، وهناك محمد علي الشهاري المؤرخ، وهناك محمد عبد الولي رائد القصة اليمنية، وهناك عمر الجاوي المنظِّر والسياسي ومؤسس اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين كيانًا جامعًا، وغيرهؤلاء كثيرون، أما لو نظرنا إلى أعضاء اللجنة التنفيذية المذكورين السبعة فإننا سنجد الخلاف حول قصيدة التفعيلة الأولى في اليمن، عند الدارسين محصورًا في ثلاثة من أعضاء هذه اللجنة وهم محمد أنعم غالب، وإبراهيم صادق، وعبده عثمان محمد.

ولدتْ حركة الطلبة اليمنيين، في مصر، مستفيدةً من السياق التاريخي للوعي التحرري اليمني ومسيرته المناهضة للإمام بشتى الوسائل حينًا، والمتصالحة معه والإلحاح عليه لإصلاح حال البلاد والعباد ومواكبة التقدم أحيانًا آخر. كانت حركة المعارضة اليمنية، في الداخل والخارج، قبل ميلاد حركة الطلبة قد مرت بمنعطفات عدَّة، منذ فعاليات المعارضة الأولى، وأعني تلك التي اتخذت صيغ التحول الفكري للشخصية اليمنية في مطلع القرن، وربما ما قبله مع قليل من التكهُّنِ، سواء تحول الشخصية الأبرز أحمد محمد نعمان بفضل قدوم محمد أحمد حيدرة إليه في ذبحان، فبفضل ما ترك بعد طرده من كتب غيَّرت فكر النعمان المتأثر بسياق مدرسة زبيد الفقهية العلمية التقليدية، أو تحوُّل الآخرين من طلائع الثورة اليمنية، ثمَّ تلك الهيئة السرية التي عُرِفَتْ بـ" الجمعية اليمانية" التي ما لبثت أن تلاشت وأغلقت مدرسة ذبحان ونادي الإصلاح العربي، حيث المقر السري للجمعية، مرورًا برفض السلطات المصرية لطلب النعمان إنشاء صحيفة يمنية معارضة بمصر 1939م، وإنشاء ما عرف بـ " كتيبة الشباب اليمني" في القاهرة 1940م. بعد قدوم الزبيري والآخرون.

كان مؤسسو كتيبة "الشباب اليمني" من الشمال اليمني المستقل، والجنوب اليمني المحتل، في الوقت نفسه، أي أنها ولدت وحدوية تمثِّل اليمن الطبيعي كلًّا، إذ كان من المؤسسين "كل من محمد علي الجفري وأحمد عبد الرحمن الجفري (من لحج)، و سالم الصافي (من حضرموت)،ومحمد صالح المسمري (من إب-يريم)، ويحيى أحمد زبارة، ومحمد محمود الزبيري (من صنعاء)، وأحمد محمد نعمان (من تعز)[1]"، وقد تلى هذا التنظيم ما دعاه الزبيري ببرنامج " الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"، ولا حاجة بنا إلى التفصيل في هذا، وخروج الأحرار اليمنيين إلى عدن، ونشأة " جميعة الشباب اليماني" في القاهرة، و" حزب الأحرار اليمني" في عدن.كما تخلَّقت الجمعية اليمنية الكبرى في عدن، ثم الاتحاد اليمني في القاهرة.

لم يستمر الأمر كما هو عليه، لا سيما بعد ثورة 1948م، 1955م؛ إذ دارت رحى الاتهامات بين عدد المعارضين اليمنيين، لا سيما في القاهرة، وقيل أن المفوضية احتوت الاتحاد، وانشق بعض أعضاء الهيئة الإدارية وانضموا للإمام أحمد. كما انشق آل الوزير، وأسسوا " حِزْب الشعب". إلى جانب انشقاقات أخرى، وقد قام الاتحاد بعد ذلك بتطهير لائحة منتسبيه من العناصر المتصلة بالمفوضية، وجدد طرائق عمله معاودًا أنشطته ومعارضته التاريخية.

في هذه الأجواء، ولدت حركة الطلبة، وجاء مؤتمر الطلبة اليمنيين الدائم بالقاهرة 1956، الَّذَيْنِ كان عبده عثمان من أهم مؤسسيهما، وكان هؤلاء الفاعلون الجدد أكثر ثورية ووضوحًا، وإن كان مجيئهم لم يلغ دور الاتحاد، وقد ذكر أبو بكر السقاف تخوُّفَ الزبيري من شعارات مؤتمر الطلبة، ومن شعار"مقاومة الاستبداد والاستعمار" خاصة، وعدَّ ذلك جنونًا[2]، وقد تغير الأمر بعد ذلك، بعد يأس مصر عبد الناصر من الإمام أحمد نهائيًا، فأعلن الجميع موقفًا صارخًا، ومحاربًا، ورافضًا لتخلف الحكم الإمامي ورجعيته، ورافضًا للاستعمار، وقد انضم كثير من أعضاء مؤتمر

---

1 – صادق السالمي، المعارضة اليمنية في مصر، مؤسسة أروقة للدراسات والنشر، القاهرة، 2017م، صـ126.

2 – علي محمد عبده لمحات، صـ124، نقلاً عن : أبو بكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية".

الطلبة اليمنيين، وغيرهم، إلى بعض التيارات المتجاوزة للبعد المحلي اليمني، ويذكر الدكتور أحمد القصير أن عبده عثمان وعدد من زملائه من الشمال والجنوب اليمني، كانوا من أوائل من انضموا إلى " الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني" حدتو".

هذا هو عبده عثمان محمد النقابي والسياسي، والفاعل الجمهوري، والمؤسس، والمناضل في تلك الفترة الحرجة من تاريخ اليمن قبل زوال الإمامة واستبدادها، في سبتمبر 1962م، هذا هو في بوتقة وغليان ذلك المد العاصف، وهي فعلية سياقية تحررية عامة تتحرك في كل السبل الفاعلة، وهو سياق مفيد لنا وللدراسين ومتابعي إبداع عبده عثمان؛ لندرك أن خروجه من أغلال الشعر العمودي، وإن بقي يكتب القليل منه، إلى أفاق الشعر التفعيلي مرتبط بإدراكه العام ووعيه الواسع، وإن كنا ـ بلا شك . لن نتماد مع جوانب عبده عثمان الأخرى، ولن نتوسع في ذلك، لأنَّ هدفنا من هذه التقديم، الذي يشبه التحقيق المبدئي لأعمال الشاعر، هو ما بين أيدينا من دواوين ونصوص شعرية؛ بغية إخراجها للناس بالحُلَّةِ المرجوة، ومراجعتها، وبيان موضعها من الشعر الحديث، ولمعرفة المزيد عن موقف عثمان السياسي يمكن الإطلاع على كتب من أرَّخوا لتلك الفترة من تاريخ اليمن وما تلاها.

عبده عثمان الشاعر، وأعماله الكاملة هذه، هما موضوعانا إذن؟!

بعد أن أخبرني العزيز الروائي والناقد الأستاذ محمد عبد الوكيل جازم بعزم القديرة منيرة عبده عثمان ابنة الشاعر إصدار نسخة جديدة من الأعمال الكاملة لوالدها الرائد الراحل وصلني هذا العمل ورقيًّا من خلالها في طبعة تجريبية، بعنوان " مختارات من أعمال رائد القصيدة الحديثة في اليمن عبده عثمان محمد"، فسألتها على الفور إن كان هذا العمل مختارات بالفعل؟! فأخبرتني أنها نفس نسخة الأعمال الكاملة للشاعر التي نشرت في صنعاء عام 2004م، وحين أعدت قراءة النسخة، تأكدت بالفعل أنها نفس نسخة الأعمال الكاملة ذاتها التي كنت قرأتها إبَّان صدورها، فناقشنا ضرورة صدورها بصفتها أعمالًا كاملة كما هي في الأصل، كما تحدثنا عن إمكانية البحث في إرشيف الشاعر علَّنا

نجد نصوصًا جديدة يمكن إضافتها لهذه النسخة، ليطلع الباحثون والمهتمون بالشعر والشاعر على غير المنشور من شعر عبده عثمان، إن كان ثمة ما لم يجمع في هذه المجموعة أو سابقتها، غير أنَّ هذا لم يكن ممكنًا البتة بسبب الحرب في اليمن، ولأن أسرة الشاعر لم تعد في صنعاء، وقد أصابني هذا بالإحباط إلى حدٍ ما.

أدَّى بي هذا الإحباط . لأكن دقيقًا . إلى تقليب الفكرة على وجوه عدة، وسؤال نفسي وبعض الأصدقاء الذين أشركتهم فيما يعتمل في ذهني بشأن أعمال عبده عثمان الشعرية: ما فائدة نشر هذه الدواوين في كتاب واحد مجمعًا إذا كانت قد صدرت بهذه الصيغة في صنعاء 2004م ؟! ولكن هذا التساؤل لم يلبث أن ولَّى عني بإدراكي والأصدقاء أنَّ نسخة 2004 تلك، التي صدرت قبل رحيل عبده عثمان بأكثر من إحدى عشر سنة قد نفذت من المكتبات ولم يعد لها وجود أصلًا، ومن ثمَّ لزمتْ إعادة إصدارها مجددًا، وفي طبعة غير حكومية خاصة، وفي طبعة عربية عامة غير محصورة باليمن، وهو أمر أدركه الشاعر نفسه قبل ما يربوا على ثمانٍ وثلاثين سنة، حيث جمع الشاعر أعماله الشعرية المعروفة الثلاثة في كتاب واحد عنونه بـ " واحد من الناس" ونشره عام 1979، في دار الحرية للطباعة ببغداد، وهو اسم القصيدة الثانية في ديوانه " مارب يتكلم"، وهذه المجموعة هي نفسها المنشورة في 2004، في كتاب الأعمال الشعرية لعبده عثمان، مضاف إليها كتاب، أو قسم، أو ديوان رابع ـ ليسمه القارئ ما شاء ـ سماه " متفرقات" ويضم أزيد من عشرين قصيدة لم تنشر في أيٍّ من المجموعات الشعرية السابقة.

بدت لي مجموعة " متفرقات"، مما أشرت إليه، الإضافة الحقيقة إلى الأعمال الشعرية الكاملة" صيغة 2004"، ويبدو أن الشاعر قد أعطاها جلَّ عنايته أوان إعداد الكتاب المجمع؛ لأسباب ربما منها عدم انضوائها تحت أي من العناوين السابقة، ومنها أن الدواوين الثلاثة سالفة الذكر تمكن مراجعتها على نسخة دار الحرية" واحد من الناس"، وهي طبعة أنيقة كما تبدو من قطعها الطباعي وجودة الإخراج الفني ونوعية الورق المستخدم، ومن ثمَّ برزت بعض الاختلافات الطفيفة، والهنات بين

طبعة بعداد 79م وصنعاء 2004، وبالتأكيد لصالح الطبعة الأقدم، وإن كانت الطبعة الأخيرة حسنة الهندام أيضًا، وهو ما حاولت تتبعه وتصويبه، أو ترتيب أشكاله؛ على أن في طبعة بغداد بعض الهنات لعلها تتعلق براقن الكتاب في دار النشر العراقية تتعلق معظمها في همزات الوصل والفصل، إن بإهمال الهمز وإن بترك علامة الهمز التي تؤيد التفعلية العروضي، وإهمال الهمز متعلق بطبيعة الكتابة في العراق تحديدًا.

هذا العمل الذي بين يدينا هو السابق نفسه، أو سيكون هو عينه ما دمنا لن نضيف جديدًا؟! لا إضافة إذن سوى أن هذه الطبعة ستصدر من القاهرة، وفي حلة مميزة؟! ليس سوى ضبط الطبعة الأخيرة على سابقتها هو المميز للطبعة الأحدث؟! دوَّامات جمة من مثل هذا، وأوسع استبدت بشروعي في إعداد هذا الطبعة للنشر، وعلى ما نقرأه الآن من مثال، لكن بحثًا عن سياق عبد عثمان الشعري والثقافي، والثوري، والسياسي، والإنساني عامة، وقف بي على جوانب عدة يمكن الدخول إلى عوالم عبده عثمان من خلالها، فكان لا بد من ضبط هذا العمل على ما سبقه، تكرارًا، ولا سيما على ما أشرنا إليه، واحد من الناس" دار الحرية ـ بغداد"، والتأني في ذلك، والتثبُّت من النصوص، قصيدة إثر أخرى، وهذا أولاً.

ويأتي " ثالثًا"؛ متابعة لما مضى، من أهمية البحث، على حسب الممكن بالطبع وما تتسع له مساحة كهذه، في تجربة عبد عثمان الشعرية، مما بين دفتي الأعمال الكاملة، ومميزاتها، وما كتب حولها من دراسات أكاديمية وأبحاث، ومقالات صحفية نقدية، ووجوب التفتيش عن نصوص أخرى كتبها الشاعر، ولم تشملها مجموعته الكاملة على صورتها في حياته؛ ربما لأنه لم يكن يحتفظ بنسخ منها بعد نشرها في الصحف، وربما لأنه اعتقد بأنها دون مستواه الفني، وهذا ليس صحيحًا، وربما لظنه بعدم جواز الجمع في عمل شعري بين الشعر العامي والغنائي والفصيح، وهكذا دواليك.

لم تحظ شعرية عبده عثمان ومجموعاته الأربع، بعد إضافته لـ " متفرقات" بغير القليل من النقد الجامعي، إن جازت الصفة، والصحفي؛ لأسباب عدة منها ما كتبه رفيق عبده عثمان

الشاعر والناقد والمفكّر اليمني العلَم الدكتور عبد العزيز المقالح، رحمه الله، في دراسته عنه، التي أُعِيدَ نشرها مقدمة للأعمال الشعرية لعبده عثمان 2004م سالفة الإيراد، بعد أن رأى المقالح أنها . بحسب عبارته . ما زالت تفي بالغرض، وتقدم صورةً وافية إلى حدٍ ما عن دور هذا الشاعر الكبير ومكانته في الحركة الشعرية اليمنية الجديدة التي اتسعت.. ودراسة المقالح هذه، برأيي، من أفضل ما كتب عن عبده عثمان، بل إنها الأكثر صدقًا وحميمة ووفاء لصديق ورفيق إبداع وإنسانية، ومن هنا كان من الواجب علينا أمام هكذا شهادة أن نعيد نشرها مجددًا في هذه الطبعة الجديدة، علّها تعلم أجيالنا الجديدة معنى الشهادة على المرحلة والرفقة، وإبراز الجماليات بلا تأفف أو مواربة!، إضافة إلى دراسة المقالح له في كتاب" الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن".

وضع الدكتور المقالح ما أشرنا إليه من أسباب، وإن كان لي وجهة نظر في بعض جزئياتها، في أكثر من إشارة هي : أولًا عدم محاولة عبده عثمان المشاركة في الموجة الأخيرة المتفشية في المجال الشكلي، وبقائه بعيدًا عن الانبهار بما أصاب القصيدة في السبعينيات من أساليب الحداثة والإدهاش واكتفائه بذلك النوع من التجديد الرصين الذي يحتفظ بسمات عروضية واضحة وبنبرة غنائية وإيقاعية تجعل العلاقة بينه وبين الجمهور مباشرة وغير خاضعة للتعقيد والاضطراب وهذا ثانيًا، أما ثالثًا فهو توقف الشاعر عبده عثمان عن كتابة القصيدة، وهو ـ بحسب المقالح ـ الشاعر الذي آثر الشعر على الدراسة الأكاديمية، والشاعر الذي انصهر في نار الالتزام الوطني، وتقدم مسيرة الكوكبة القليلة من شعراء الجديد في اليمن، وهنا، في آخر سطرين من دراسة المقالح، يتساءل ملتاعًا بـ : هل أذهل عبده عثمان ما يقرأ من شعر باسم الشعر فتوقف احتجاجًا، أو شغله الحنين إلى الوطن عن الحنين إلى الشعر؟!

ظلَّت أقسام اللغة العربية وآدابها في الجامعات اليمنية عطلا من رسائل علمية " ماجستير ـ دكتوراه"، كل رسالة منها، أو مشروع بحثي مخصصًا بكامله لتجربة عبد عثمان محمد الشعرية، إلى أن تقدمت الباحثة غالية عيسى عام 2007م إلى

كلية التربية بجامعة عدن برسالة جعلت عنوانها " شعر عبده عثمان... دراسة فنية"، وأشرف على جهد الباحثة هذا الشاعر والكاتب والأكاديمي السوداني الدكتور مبارك حسن الخليفة، وهي رسالة غطَّتْ معظم جوانب نص عبده عثمان، وجاءت في حوالي 358 صفحة، على الرغم من أن رسالتها ليست، من الناحية التنظيمية الإدارية، سوى بحث لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية، كما أوردت في صفحة عنوان البحث/ الأطروحة، فقضت وقتًا مناسبًا كالذي يقضيه باحثو الماجستير الذين يتمحور برنامج الماجستير لديهم في الرسالة فقط بما يعرف المواد التمهيدية لهذه الدرجة، وهذا صنيع محسوب لها، ولدأبها في محاولة الإحاطة بعوالم الشاعر، مع أن رسالة واحدة وحتى عشرين رسالة قليلة في دراسة تجربة مكتملة لكاتب أو شاعر أو فنان، أو.....

ولأن أطروحة " شعر عبده عثمان.. دراسة فنية" هي "أول دراسة متكاملة وشاملة .كما تقول الباحثة في المقدمة مشيرة إلى أن هذا الحكم هو بحسب علم الباحثة للجانب الفني في شعر عبده عثمان، وربما كانت أول رسالة جامعية في الجامعات اليمنية1"؛ لأنها كذلك تحتم علينا هنا عرض عناوين فصول الرسالة، وما تناولته مكتفين بإيجاز مخلٍّ وقاصر اقتضته مساحة هذه المقدمة/الدراسة، المختصرة أيضًا، حيث تموضعت في الرسالة ثلاثة فصول ركزت في الأول منها على الموقف والرؤيا في شعر عبده عثمان، وفي الثاني على بناء القصيدة من خلال" بحث الإيقاع الموسيقي، والمعمار المتمثِّل في الأداء القصصي والدرامي"، بينما باحثت في الفصل الثالث اللغة الشعرية من زاويتي الصورة الشعرية، والمعجم الشعري الفني والسياسي، وقد سبقت كل ذلك بتمهيد عن حركة الشعر العربي المعاصر ومكانة عبده عثمان في هذه الحركة، وختمت الدراسة بخلاصة لأهم ما اشتملت عليه وانتهت إليه من محاور وأفكار، ثم بملحق بالأخطاء العروضية والنحوية واللغوية والإملائية، مؤكدةً على استخدامها .في عملها . "للمنهج الفني في رصد ظواهر هذا الشعر، ومدى إفادته من

---

1 – انظر مقدمة الرسالة، صـ10

الشعر العربي الحديث، والخصائص الفنية للقصيدة الجديدة"، ولن نناقش ما جاء في الرسالة من آراء، وما انتهت إليه من أحكام، وما اتخذت من إجراءات ما لم نضطر إلى ذلك، ويدعونا الدرس إليه، وبإمكان المهتم والمختص أن يعود إلى رسالة الباحثة ومطالعة نصها، وما بذل فيه من نقاش وحواروتدارس.

إلى جانب دراسة المقالح المذكورة، وما أشرنا إليه من وصفها بالوفاء، وإلى كونها . مبحثًا صغيرًا في كتاب . ودراسة صغيرة أخرى له عنه في كتاب الآخر، هناك مجموعة من الدراسات، على قلتها كما سبق، تعاطت مع تجربة عبده عثمان ضمن موضوع كلّي، على جودة عدد منها، ومن هذه كتابات كل من : الدكتورعز الدين إسماعيل في" الشعر المعاصر في اليمن.. الرؤية والفن. الشاعر عبد الله البردوني في " رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه. الأستاذ هلال ناجي في " شعراء اليمن المعاصرون.. 1966". عبد المطلب جبر في " التجديد في شعر اليمن الحديث". عبد الناصر أحمد عبد الله مفتاح في " الشعر الحر في اليمن". أحمد قاسم المخلافي في " الشعر اليمني المعاصر بين الأصالة والتجديد". عبد الرحمن عمرعرفان في " الشعر الحديث في اليمن"[1].

ولربما كان مع الدكتور المقالح بعض الحق في مقولة احتفاء عبده عثمان عن المشهد، وهذا ما يفسر، حضور عبده عثمان نصوصًا وتجربة بشكل نوعي في النصوص النقدية المبكرة للشعر اليمني الحديث بعد خمسينيات القرن المنصرم، كما رأينا في دراسات هلال ناجي وعز الدين إسماعيل والبردوني والمقالح، أما بعد ذلك فتحوَّل الحضور كثيرًا إلى ما لا يمكن محوه عن عبده عثمان ورياديته وفي كونه انحاز، وهو في مصر بعد1950م، باكرًا إلى الشعر التفعيلي الحديث مع رفاقة من شعراء مصر الرواد، أو غيرهم من الرواد العرب المقيمين بمصر وفي الصدارة من هؤلاء الرائدين المعروفين صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي[2]، وقد أشار المقالح إلى أنَّ المرحوم عبد الصبور كان يدعو

---

1 – ينظر أيضًا عن هذا الرصد المرجع السابق، صـ11.

2 . في تواصلي تلفونيًّا مع الشاعر الرائد المعروف أحمد عبد المعطي حجازي حدَّثني عن تلك الفترة وحضور عبده عثمان ضمن مجموعتهم الشعرية الرائدة.

عبده عثمان بـ" الزميل" كلما جاء ذكره لاحقًا في جلساته مع الشعراء ومنهم المقالح الذي يروي: " وعندما سألته عن حرصه على إطلاق صفة الزمالة على الشاعر عبده عثمان كلما ورد ذكره قال: لقد عشنا معًا منذ منتصف الخمسينات، وهي الفترة الي تبلورت فيها القصيدة الحديثة في مصر، وكنا مجموعة من الشعراء الشبان نعيش مناخًا شعريًا مشتركًا، ونتطلع بكل أشواقها وخيالاتها نحو الحداثة، وقد عرفتنا المقاهي الفقيرة وشقق السطوح، وكان من أفراد هذه المجموعة غير عبده عثمان مثلًا: أحمد عبد المعطي حجازي، ومحمد الفيتوري،[1]".

لا تعني الإشارة إلى هذا العدد المحدود من الدراسات لتجربة عبده عثمان الشعرية انحصار دراسته على هذه الأعمال المذكورة فقط، بل إن هذه الأعمال هي التي أفردته ـ بتناولة خاصة به، وليس ضمن موضوع أدبي أو عصر ما، وإلا فإنَّ ذكره سائر في الدراسات التي تؤرخ للشعر اليمني عمومًا، ولشعر الرواد اليمنيين على وجه الخصوص، كما أنه لا بد وأن دراسات كثيرة عن عبده عثمان لم تصل إلينا، لا سيما وأن معظم أدبيات الدرس النقدي اليمني والعربي ما زالت غير مرقمنة، وما زالت في رفوف المكتبات الجامعية والشخصية والخاصة.

لم يكن عبده عثمان الشاعر والسياسي شخصًا عاديا، وبالتالي فقد برزت حوله اختلافات عدة، ففي حين يؤكد المقالح على ريادته، فإن البردوني، دون أن ينفي عنه الريادة بالطبع، يقول بتأثر عبده عثمان في قصائده الأولى بشدة بديوان نازك الملائكة" قرارة الموجة"، ففي قصيدة عثمان " القيود"، برأي البردوني، لمسات خفيفة من قصيدة " أول الطريق" في " قرارة الموجة"، كما تأثر عثمان بنازك في قصيدته " بلادي"، والحقيقة أنه شتان بين تجربتي عثمان ونازك في هذين القصيدتين، فعبده عثمان بعيد عن الرومانسية، وإن برز عنده خيط طفيف منها، فقصائده تنضح بالواقع والمعاش واليومي، على العكس تمامًا من قصائد نازك الملائكة المنغمسة في الرومانسية آنذاك، وقد تنبه البردوني إلى بعض هذا فيما يخص قصيدة بلادي، فنازك "تدعو إلى

---

1 – انظر مقدمة المقالح في الصفحات القادمة، صـ

الأحلام وعد النجوم، وعبده عثمان يصارع الحريق في زحمة الواقع المتحرك، ويحمل بين جنبيه كل تل وواد من تلال اليمن وأوديتها"، وعبده عثمان برأي البردوني أيضًا، كغيرة من مدرسة الواقعية الجديدة، يستفيد من كل المدارس، وهو. عبده عثمان. " في شعره وطني من أعلى طراز؛ حمل اليمن في عينيه وبين جنبيه، واتقد بقضية الإنسان المعذَّب. فقلما تطالعك قصيدة له إلا و" بن" اليمن يفتر من بين حروفها، وحقول اليمن تمتد على امتداد مقاطعها".

إن عبده عثمان، بحسب الناقد العراقي هلال ناجي جيد الشكل والمضمون معًا، ويرى المقالح في قصيدة عبده عثمان عن المناضلة الجزائرية" جميلة بوحيرد" الاستثناء الشعري الوحيد من بين القصائد التي قيلت في هذا الحدث، وهي تستاهل أن يعجب بها، ويتذكرها شاعر كبير كصلاح عبده الصبور، أما قصيدته" القيود" ففهي برأيه تجربة فنية متميزة وتجربة نضالية أشد تميزًا. إن عبده عثمان من أوائل المغامرين والمجربين في حقل القصيدة العربية.

وتتداخل حياة عبده عثمان الشعرية بحياته النضالية والسياسية في قصائده، وهو عروبي النزعة، وحدوي التوجُّه . سيحيلنا هذا إلى كونه وزيرًا للوحدة 1967م . وقبل كل هذا وذاك إنساني الحركة والضمير والانفعال، وتحتل القضايا الإنسانية أولياته الشعرية والحياتية، إذ سنجده يفرد لفلسطين ديوانًا من أهم دواوينه " فلسطين في السجن"، وسنجد هذه الموضوعات العابرة للخاص والمحلي تتقاطع في دواوينه، سنجد الجزائر وفتنام، وغزَّة،وغيرها كثير كما سنجده يتقاطع مع الماضي بامتداداته حيث ذو نواس الرمز التاريخي اليمني داخل سياق ثورات اليمنيين على الإمامة فهو اللقية الثائر أحد مطلقي النار على الإمام أحمد في الحديدة، وهو، وهو، وهو... إنَّ شعريته تتقاطع مع كل شيء لكن الثورة تحتل حركة قصيده، مازجًا كل ذلك بأعظم المشاعر الإنسانية ـ الألم ـ وأقدسها، غير أنَّ حضور أي من الثيمات الشعرية المحلية اليمنية والعروبية فالإنسانية في شعر عبده عثمان لم يكن عابرًا، أو وقتيًّا، فمأرب التاريخ تكلمت في نص عثمان ديوانًا كاملًا، اشترك معه فيه الشاعر المقالح،

وثيمتا الجدار . الصد والقوة والممانعة ،. والمشنقة . التجني، والمأزق، والتضحية والمآل،و.. . تمثلتا في ديوان كامل هو الجدار والمشنقة، وحين جمع هذين العملين (مأرب يتكلم والجدار والمشنقة) مع عمله (فلسطين في السجن) جمعهما تحت عنوان (واحد من الناس) وهو عنوان في غاية الواقعية والحضور.

تتنوع عوالم عبده عثمان الشعرية في هذه الأعمال الشعرية التي بين يدينا، وفي فضاءاته الأخرى، وهو مستشرف كبير كما يبدو من قصائده السابقة على الثورة اليمنية، كما أن نصوصه ما زالت تنبض بالشعر والحياة إلى اليوم، ولعل ما صارت إليه البلاد اليمنية اليوم من أكبر الحوافز على أهمية إصدار هذه الأعمال المجمَّعة مجددًا، فصوت عثمان الشعري والوطني اليوم هو ما يحتاجه اليمنيون اليوم، حيث الشتات والتمزُّق، والاغتراب، وإنك واجد وأنت تقرأ شعر عبده عثمان كأنَّ هذه النصوص كتبت اللحظة هذه، ولننظر على سبيل أبسط في قصيدته " يمنية في القاهرة" من القسم الرابع في هذا الكتاب المعنون بـ" متفرقات" " عينانِ لا تهزمان.. دونهما نجمتان... أو باقة من أغانٍ.. تدعو إلى العودةِ" فكأننا نشاهد هذه الفتاة اللحظة في القاهرة حيث يقطن قرابة المليوني يمني شردتهم الحرب وما آل إليه أمر الوطن، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وأخيراً في نهاية هذه التناولة لا بد من الإشارة إلى بعض الأمور ومنها: أنَّ هذه الأعمال هي ـ إلى حدٍ ما ـ نفسها التي صدرت في الأعمال الكاملة 2004م، ولكن ما يميز هذه النسخة أن الدواوين الثلاثة الأولى مدققة على مجموعة "واحد من الناس" الكاملة قبل إضافة المتفرقات في 2004م وقد أشرنا إلى بعض ذلك في الهوامش كلما احتجنا إلى ذلك وهذا أولًا. أما ثانيًا فهو ما وضعناها في البداية من تعريف بسيط بدور عبده عثمان السياسي والوطني لوضع التجربة وصاحبها في سياقها الطبيعي والتاريخي والعملي. وثالثاً: إضافة ملحق خامس صغير وضعنا فيه قصيدة عثمان في رثاء عبد الغني علي، وهي قصيدة مميزة، كما وضعنا فيه قصيدتين غنائتين كتبهما الشاعر، وهما قصيدة " يا حلو يا أخضر اللون" التي غناها الموسيقار أحمد قاسم، وقصيدة" يا بدر يا عديني" الأغنية الشهيرة، آملين أن يجد

الباحثون في القادم أغاني وقصائد أخرى للشاعر حين يستقر الحال.

وختامًا ـ قبل أن ندخل في النص، بعد مقدمة الدكتور عبدالعزيز المقالح، رفيق الشاعر، والتي ثبتناها هنا وأعدنا نشرها لأهميتها ـ تنبغي الإشارة إلى أن عبده عثمان قد تزوَّج من أمة الرزاق الوزير، ابنة العلامة أحمد بن محمد بن علي الوزير، وهي من النساء اليمنيات الرائدات في دعم حقوق وتمكين المرأة، وصاحبة مساهمات رائعة في هذا المجال في فترة ما قبل ثورة 26 سبتمبر 1963م، من خلال تحريرها "ركن المرأة" في صحيفة" سبأ" الصادرة من تعز آنذاك، وقد استضافتها جريدة" فتاة الجزيرة" حينها. وللشاعر ورفيقة دربه ثلاثة أبناء وابنة واحدة: هشام وياسر وجمال ومنيرة ولهما من الأحفاد إحدى عشر حفيدًا وحفيدة.

ولتدم بهجة الشعر في الحياة

د.هاني الصلوي ـ القاهرة.
مؤسسة أرروقة
جامعة تعز

مكتبة اليمن الإلكترونية

تقديم

أ.د. عبدالعزيز المقالح

لم يكن الشاعر الكبير عبده عثمان محمد، واحدًا من روّاد القصيدة الجديدة في اليمن وحسب، بل كان أهم روّادها. وإليه أولًا، ثم إلى عدد من زملائه الذين كانوا يواصلون في الخمسينيات دراستهم في القاهرة ثانيًا، يرجع الفضل في دخول الشعر المعاصر في اليمن هذا المنعطف التجديدي الكامل، بعد أن ظهرت بوادره من خلال التأملات التي سجلتها قصائد عدد من الشعراء المقيمين في الوطن أمثال: لطفي جعفر أمان، إبراهيم الحضراني، أحمد محمد الشامي. وبمناسبة ظهور أعماله الكاملة في مجلد واحد، يسعدني أن أعيد هنا، ما كنت قد نشرته عنه في كتابي (من البيت إلى القصيدة)، بعد أن رأيت أنه لا يزال يفي بالغرض، ويقدم صورة وافية إلى حدٍ ما عن دور هذا الشاعر الكبير، ومكانته في الحركة الشعرية اليمنية الجديدة التي اتسعت، وحققت مع الجيل الجديد، الذي انحاز إلى الجديد، نقلة نوعية.

منذ أن طرح النقاد العرب (المعاصرون) أحكامهم غير المعاصرة عن الشعر العربي القديم، مكرّسين بها الأحكام التقليدية عن ذلك الشعر، ومدعّمين لها أحيانًا ببعض وجهات النظر المستمدة من معايير النقد الأوروبي القديم، وفي ظل ما يسمى بأدوات البحث العلمي.. منذ ذلك الحين، ونحن نعيش بلبلة نقدية ساعدت، من حيث ندري أو لا ندري، على تدهور الشعر العربي، وعلى إذكاء نار الصراع الدائر، من غير سبب، سوى العجز عن تصور الشعر في إطاره التاريخي، وإدراك حركة التغيير الجوهرية التي رافقته منذ طفولته حتى أوج ما وصل إليه من نضج، قبل الانحدار الذي هوى إليه بعد ظهور عصور الانحلال والتدهور، وما حفل به تاريخه من تقدم وتراجع، ومن صراع الأغراض والإيقاع، والخيال والصياغة، باعتباره – أي الشعر – نشاطًا إنسانيًا قابلًا للتغيير والتحوّل، لا نصًا جامدًا معزولًا عن

مجال التطور والحركة. فالشعر العربي الحقيقي لم يخضع للتقاليد الموروثة خضوعًا تامًا وشاملًا إلا في فترات الانحطاط، وقد ظل الجزء الحيّ والمتألق منه عدوًا لدودًا للسكونية والتجمّد، وكان أهم الشعراء في عرف كل العصور هو ذلك المخالف للمألوف الخارج على التقاليد الفنية الموروثة، وهو نفسه الشاعر العنيف المتفجر الباحث عن خصائص أسلوبية وتعبيرية، تندفع إلى التنامي والتمايز والتغاير، وتجعل القصيدة صورة من عصرها لا من عصور سلفت. وعندما يأتي الناقد المعاصر مسلحًا بمعارف عصره وبمعارف العصور السالفة، ويبدأ في قراءة الشعر العربي قراءة ناقدة مستبصرة، سوف يجد أن شعر كل قرن يتميز عن شعر القرن الذي سبقه، إن لم يكن في الإيقاع ففي الصور والمكونات الدلالية، وإن لم يكن في المستوى الوظيفي ففي المستوى اللغوي، وما البراهين والمفارقات التي تطرحها هذه الأسماء المعروفة أكثر من غيرها في تاريخ الشعر العربي القديم أمثال: عمر ابن أبي ربيعة، ذو الرُمّة، بشار بن برد، أبو نواس، أبو تمام، المتنبي، المعرّي؟ ولماذا كانت هذه الأسماء مفاتيح عصورها شعريًا؟ وما نوع البكارة الفنية التي مثلتها؟.

ثم ماذا تعني تلك المحاولات الجريئة التي سعت إلى كسر نظام الرتابة والتكرارية في القصيدة العربية ابتداءً من القرن الثاني الهجري، وتمثلت في المبيّتات المسمّطات والمخمّسات، وقادت من ثم إلى الموشحات، وكادت تصل بالبنية الإيقاعية إلى نظام (التفعيلية). لقد تصدع القالب الشعري منذ وقت مبكّر، وحاول شعراء كثيرون تجاوز البيتية ورتابة التقفية، واستطاعت حركة التحديث والتوليد التي قادها المحدثون والمولدون أن تهز جمود الثبات، ووضعت حدًا للاجترار الفني والموضوعي، وأن تقدم عطاءها التطوري سواء من حيث الرؤية الفردية أو الجماعية، أو من حيث الاقتراب من الطبيعة والناس.

لقد وضع القالب الشعري التقليدي بجموده واستقراره المطلقَين الزمان العربي في برواز شبيه بذلك البرواز الذي يضع فيه الناس اليوم صورة المتوفى قبل أن يعلّقوها على جدران المنازل، واستطاع هذا القالب الموحد أن يصنع بالشعر العربي

ماصنعه اللباس الأزرق في الصين بالصينيين عندما كاد يخفي الملامح الخاصة والتمايز، ذلك الذي لا بد أن يكون بين شخص وآخر، والذي لا يكاد يتبيّنه إلا الرائي المتمهل. وعندما وجه النقاد السلفيون الأذكياء إلى أبي تمام التهمة بأنه كسر عمود الشعر العربي، لم يفهم الجهلاء وأنصاف العارفين من قراء الشعر معنى للتهمة، ولم يكونوا قادرين على تصور فكرة تحطيم العمود سواء كان عمود المرزوقي القديم أم عمود المعاصرين القائم على المعمار الخارجي للقصيدة. لقد ساعد أبو تمام حقًا على تحطيم عمود الشعر بمفهومه القديم والجديد، وكان أبو نواس قد سبقه إلى تلك المهمة الجليلة. وكان ما أحدثه هذان الشاعران من تغيير في التركيب الشعري، وفي تحطيم علاقات الثبات في العمود الشعري التقليدي أكبر، ربما، من التغيير الذي أحدثه بعض الشعراء المعاصرين في القالب أو العمود الخارجي – إذا جازت التسمية - فقد بدأ التغيير القديم في المضمون الكلي للقصيدة كما هو عند أبي نواس، وفي المغامرة اللغوية والخروج عن المألوف كما هو عند أبي تمام، ولو قد تتابعت الحركة ولم تجد في طريقها من الموانع ما يسلبها حق التنامي والتطور لما احتاج شعرنا ولا احتاجت لغتنا كذلك إلى كل هذا الزمن لإثبات علاقتها الحميمة بالتغير والتغيير، ولإثبات قدرتهما أيضًا على الخروج من دائرة التراكمية، ولو حدث ذلك الخروج في وقته المناسب، لما كان لهذا الخروج الجزئي والأخير الذي حدث في النصف الأخير من القرن العشرين، أو في أواخر النصف الأول منه.. أقول لما كان له هذا الدويّ الهائل، ولما أسماه بعض النقاد (المعاصرين) بالخروج الأكبر، مع أنه خروج جزئي توقف في بادئ الأمر عند حدود البيتية، وظل محافظًا على معظم عناصر العمود الشعري التقليدي.

تلك – في تقديري – مقدمة ضرورية في التمهيد للحديث عن تجربة الشاعر عبده عثمان، لعدة اعتبارات منها: أن عبده عثمان ليس واحدًا من أهم شعراء هذه التجربة وحسب؛ وإنما هو أيضًا أحد روادها المعترف له بالإجماع بهذه الريادة، وقد أتاح له الحضور المبكر في نطاق هذه الحركة والارتباط بروادها الأوائل، قدرة غير عادية على نقل الهم السياسي والهم اليومي إلى

القصيدة الجديدة، دون أن يفقدها جمالية التعبير وقيمة الأداء العالية، ودون إلحاق أي ضرر بجزئيات التجربة، كما حدث مع كثير من زملائه الذين رافقوه تاريخيًا في كتابة القصيدة الجديدة أو سبقوه في هذه المرحلة التاريخية.

كان المرحوم الشاعر صلاح عبد الصبور يدعوه كلما تذكرناه ب (الزميل)، وعندما سألته عن حرصه على إطلاق صفة الزمالة على الشاعر عبده عثمان كلما ورد ذكره قال: لقد عشنا معًا منذ منتصف الخمسينيات، وهي الفترة التي تبلورت فيها القصيدة الحديثة في مصر، وكنا مجموعة من الشعراء الشبان نعيش مناخًا شعريًا مشتركًا، ونتطلع بكل أشواقها وخيالاتها نحو الحداثة، وقد عرفتنا المقاهي الفقيرة وشقق السطوح، وكان من أفراد هذه المجموعة غير عبده عثمان مثلًا: أحمد عبد المعطي حجازي، محمد الفيتوري، ابراهيم شعراوي، محمد مهران السيد، كمال عمار، فوزي العنتيل، وكامل سند.. كنا نختلف كثيرًا، ونتنافس ونتناقش كثيرًا، ونشترك في الأمسيات الشعرية، ونقرأ لبعضنا ما نكتبه قبل النشر.

وكان صلاح عبد الصبور لا ينسى كلما ورد ذكر عبده عثمان – وما أكثر ما كان يرد في لقاءاتنا – الحديث عن قصيدة عبده عثمان التي ألقاها في إحدى المناسبات القومية، وهي عن مأساة (جميلة بوحيرد) المناضلة الجزائرية الشهيرة. وكان يردّد بعض أبياتها بشيء من الإعجاب وهذه هي تلك القصيدة :

لو أنّ لي نجمة نازحة
واحتجزَتْها البحارْ
أو طولُ ما بينَنا منْ قِفارْ
لو كانَ عندي وحيدٌ
وضاعَ منْ بينِ كل الصغارْ
وأجفلَتْ أُمةُ
تسائلُ الأمسياتْ :
بالله حقًا أماتْ؟
لو كنتُ في منفى

في قلب مقصلة تموتُ فيّ الحياة
ما كانَ إطراقي الطويل.. الطويلْ..
ما كانَ في ناظري مأتمٌ
أو في شعوري عويلْ
ما كانَ هذا الدمعُ مغرقًا أحرفي
لو لم أشاهدْ (جميلة)
بينَ القيودِ الثقيلة
تلقي دروسَ البطولة
رأيتُ فيها ربيعًا هازئًا في الخريفْ
رأيتُ شعبًا في انتصارِ الصباحْ.

وعندما نضع هذه القصيدة في إطارها الخمسيني، ونقارن بينها وبين القصائد من هذا النوع الذي قيل في الحدث نفسه، لا بد أن نحكم بأنها تكاد تكون الاستثناء الشعري الوحيد، وهي تستأهل أن يعجب بها، ويتذكرها شاعر كبير كصلاح عبد الصبور، الذي كان يومئذ في طليعة الشعراء العرب المجدِّدين، وكان ديوانه الأول (الناس في بلادي) يشق طريقه كذروة أولى من ذُرا التجديد.

وفي هذه الفترة ظهرت قصيدة (القيود) للشاعر عبده عثمان، تجربة فنية متميزة، وتجربة نضالية أشد تميزًا، وهي تبدأ متوهجة متفجّرة تتحدث عن نفسها وعن صاحبها، وعن حيرتهما معًا إزاء ما كان يحدث في زمن الأئمة الجريح من مظالم ومآسٍ.. يتم ذلك كله بعيدًا عن التفاصيل، وبعيدًا عن التقريرية، وفي أبيات قليلة تجسّد القصيدة محنة اليمانيين في ديارهم وخارج حدود تلك الديار، لقد حاول اليماني أن يهرب من مأساته، وحاول نسيانها والبحث عن مكان يخفي وجهه المشرد ومأساته اللعينه . فواجهته من الداخل استحالة النسيان، واستحالة الاختفاء، لأن اليماني المشحون بحب الأرض ربما أكثر من بقية البشر أجمعين؛ إنه مشدود إلى الجبل. إلى الوادي، إلى الحقل. وتنتهي القصيدة

بصورة أجمل حين تقترب من الحديث عن أحلام اليمنيين وهي الوحدة، تلك التي تبدأ من حضرموت من (با وزير) و(تبنْ) لكي تصل إلى الشمال محطّمة كل القيود:

أمشي ولا أعي
كأنني أمام مصرعي
أقولُ مقطعًا
لكنني أرثي به ضياعَ مقطعِ
ياوترًا يئنُّ بين أضلعي
أخاطبُ الجدارَ والجدارُ لا يعي
ولا يبوحْ
وحدي أنا وراءَهُ أنوحْ
ويا قلوبًا كلُّها جروحْ
مشاعري لا يستطيعُ حملَها
أو تغلقُ الأبوابُ دونَها
كم مرّة حاولتُ أن أكونَ كالأصمّ
نزحتُ خارجَ الحدودِ
فتشتُ في قبوٍ منَ الجليدِ
لكنها قيودي
يا أحرفًا كأنها الجبالْ
مشاعري مشدودة لها
لكنني أُحبُّها، أُحبُّها
جعلتُ من قلبي مواطنًا لها
زرعتُهُ بالبنِّ والنخيلْ
بما حواه (با وزيرُ) أو (تُبَنْ)

زرعتُه،
أسكنتُ في رحابِهِ اليمنْ.

إن اليمن الواحد الثائر مزروع في القلب، ساكن في ضمير كل اليمنيين، وإذا كان الشاعر قد أمضى وقتًا طويلًا واقفًا أمام الجدار يصرخ فيه لكي يتحرك ويثور؛ فإن الجدار قد استجاب وصنع الثورة، وما عليه إلا أن يثور مرةً أخرى على نفسه، وعلى أوهامه ليصنع الثورةً الأخرى والوحدة الغالية.

كان الاتجاه الفكري الذي يحكم التجربة الشعرية في اليمن قبل ظهور عبده عثمان – حتى الجديد منها – هو الاتجاه الرومانسي بطابعه الوجداني الإيجابي حينًا والهروبي أحيانًا، استثناءات قليلة تعكس قدرًا من الرؤية الواقعية القائمة. وبعد ظهور عبده عثمان شاعرًا تحولت الرؤية الشعرية، وبدأت بفضل قصائده وبفضل قدرته على توظيف الفن الشعري مسارًا آخر. لقد اقترب الشاعر من الواقع يستلهمه ويحاوره، وكان اختياره الحاسم للشكل الفني الجديد، لكي يستوعب من خلاله المنظور الجديد للقضية والإنسان، له تأثير بالغ على مساره الشعري، ولأن قضية التجديد في الشعر ليست قضية أساليب أو أشكال، فإنها لا بد أن تكون بالضرورة قضية خلق متجانس، ومن هنا نعي تلك الإشارة الذكية للشاعر والفنان أرنولد بريخت، حينما قال: (إذا ما أردنا عمليًا استيعاب العالم الجديد فينا، فعلينا أن نبتكر وسائل فنية جديدة، ونعيد صياغة الوسائل القديمة. علينا أن ندرس اليوم وسائل كلاست وغوته وشيللر الفنية، غير أنها لن تكفينا في التعبير عما هو جديد.. إن رفض التجريب يعني الاكتفاء بالموجود وهذا يعني التكلف).. وهذا – في تقديري – مانفستو آخر لا يخرج من ألمانيا ليحدد حتمية التطور في مجال الفنون والآداب، وينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا في هذه المرحلة الخطيرة من مراحل التردّد والارتداد، وفي مرحلة الصراع الضاري بين القديم والجديد..

في هذه القصيدة التي يروي فيها الشاعر قصة مصرع أحد أبطال المحاولة الجريئة لاغتيال الإمام أحمد حميد الدين، والبطل هو الشهيد (محمد عبد الله العلفي) هذا البعد الرمزي

الحاصل من استدعاء الشعر لشخصية ثائر يمني قديم هو (ذُو نُواس)، ومحاولة جعلهما كينونة واحدة تعبر عن حالة الإحباط التي أدركت كلاًّ من البطلين، فقد حاول الأول ردّ قوات الاحتلال الحبشي، ولما فشل آثر الموت غرقًا بدلًا من تقبّل الاحتلال، وحاول الآخر القضاء على الإمام، ولما فشلت المهمة أطلق الرصاص على نفسه حتى لا يعيش يومًا آخر في قبضة الطغيان، وحتى لا تشهد عيناه آثار الفشل المشؤوم.

وتبقى مع نهاية هذه القراءة العجلى إشارتان: الأولى إلى أن الشاعر عبده عثمان، وهو من أوائل المغامرين والمجرِبين في حقل القصيدة العربية الجديدة، لم يحاول أن يشارك في الموجة الأخيرة المتفشية في المجال الشكلي، تلك التي حققت قدرًا من التميز والخصوصية لبعض الشعراء الشبان وبعض الشعراء الروّاد، كما أنه ظل بعيدًا عن الانبهار بما أصاب القصيدة في السبعينيات من أساليب الحداثة والإدهاش، واكتفى بذلك النوع من التجديد الرصين الذي يحتفظ بسمات عروضية واضحة. وبنبرة غنائية وإيقاعية، تجعل العلاقة بينه وبين الجمهور مباشرة وغير خاضعة للتعقيد والاضطراب.

أما الإشارة الثانية والأخيرة، فهي عن توقف الشاعر عبده عثمان عن كتابة القصيدة، وهو الشاعر الذي آثر الشعر على الدراسة الأكاديمية، والشاعر الذي انصهر في نار الالتزام الوطني وتقدم مسيرة قافلة الكوكبة القليلة من شعراء الجديد في اليمن.. هل أذهله ما يُقرأ من شعر باسم الشعر فتوقف احتجاجًا، أو شغله الحنين إلى الوطن عن الحنين إلى الشعر؟!

د. عبد العزيز المقالح

كلية الآداب – جامعة صنعاء

1
الجدار والمشنقة

الحبّ سلام

يومٌ رائعْ.. يومٌ رائعْ
يومَ يحبُّ الناسُ الناسْ
ويدقُّ لقلبٍ قلْبْ
حسٌّ يتلاشى في الآخرْ
أبدًا يا نجمتيَ المنشودةْ
يا معبودةْ
نغمٌ منسابٌ بقصيدةْ
حرفًا حرفًا سأُغنيها
وتظلُّ رؤىً مشدودةْ
لمعانيها
وكما خطَّتْ ريشة (إيلوارَ) الثوريّة :
الحريّةْ.. الحريّةْ
في كلِّ مكانٍ سأخطُّ اسْمَكِ
تذكارَ غرامْ.
والشمسُ تغارْ
في كلِّ صباحْ
إن قلتُ اسمُكِ

ينبوعُ حنانْ
كلماتُ سلامْ
الحبُّ سلامْ
عيناكِ نهارْ
سمراءَ النيلْ
عيناكِ بحيرةْ
وعلى الشطآنِ عصافيرٌ تمرحْ
أحلامٌ بلقاءٍ تصدحْ
وتظلُّ ترتِّلْ
اثنينِ.. اثنينْ
يلتقيانِ جوارَ[1] حديقةْ
ويعربدُ شوقْ
ويطولُ اللَّيلْ
واللَّيلُ رهيبٌ كالطَّوْقْ
فأطلِّي شمسَ الإثنينْ
يا حلمَ اثنينْ

القاهرة 1957م

1 – جاءت في واحد من الناس كلمة عند مكان كلمة جوار في الأعمال الكاملة.

الجدار والمشنقة

إلى عام 1972م

-1-

أضربُ،
أعصرُ كفًّا في كَفْ
وأشدُّ الشَّعْرَ أشدُّ الشعرْ
أوشك أن أنتزع الجلدْ
أحفرُ في عظم الرأسِ بلا جدوى
وأدقُّ الصدرَ أدقُّ الصدرْ
بحثًا عن قلبٍ عاشقْ
كم كانَ يحبُّ وكم يهوى !
وأجيلُ الطرفَ أُحدِّقُ في الأشياءْ
ما حلَّ بها؟
ما حلَّ بنا؟

-2-

وفي الزوايا الحالكة
أخوضُ أقسى معركة
أُنازلُ الشيطانَ والملائكةْ
وتارة أعودُ للنذورْ
أُسابقُ المؤذنينَ للصلاة ساعة السَّحَرْ

أعدو فتبعدُ المنارةْ
تنعدمُ الأصواتُ والإشارةْ
أسقطُ في الظلامِ.. أندبُ الحضارةْ
أصرخُ بالجدارْ
أدقُّ بالجدارِ رأسي
ما أوحشَ اللَّيالي

ما أوحشَ المدينةْ
حتى ولو يطلُّ من سمائِها القمرْ
أو نزرعُ الأضواءَ في المياهِ والشجرْ.
أوّاهُ عندما نرافقُ السهرْ
تقهرُنا ملامحُ الضجرْ
يسقطُ كلُّ شيءٍ في حسابِنا
يسقطُ في إطراقِنا
عذَّبْتَني يا أمسْ
عذبتَني يا يومْ
أمعنتَ في عذابي يا غدي
ويا حبالَ مشنقة
أجرُّها.. تجرُّني
للخلفِ للأمامْ
أُطعمُها عُمْرًا من الأيامْ
أسيرُ نحوَ ساحة الإعدامْ.

بكين

في ذكرى الزّبيري

يمشـي ويثقلُـهُ الحـنينُ ويزفـرُ
ريحًـا تمـزِّقُ روحَـهُ وتبعثـرُ

ويسـيرُ لا يـدري إلى أيـن الخطـى
قـد تنتهـي أو هـل يُقـالُ تعثـُّرُ

كـم جمَّـعَ الأنفـاسَ في أوصـالِهِ
فلعلـَّهُ يضـعُ القيـودَ ويكسـرُ

ولعلـَّهُ سـيرى جمـوعَ بـلادِهِ
متعـانقينَ، وأرضَـهم تخضوضـرُ

وجبـالُهم زادتْ شـموخًا بعـدما
كـان الحضـيضُ عـلى الـذُّرا يتبخـترُ

يمشـــي ويصـــرخُ فكـــرُهُ متســـائلاً
ويمـــدُّ أجنحـــة الخيـــالِ وينشـــرُ
يـــتقحَّمُ الدنيـــا و كـــلَّ ســـلاحِهِ
شـــعرٌ يهـــز مراقـــدًا، ويـــدمِّرُ
وبأنـــّه شـــخصٌ لحـــبِّ بـــلادِهِ
أمســـى يوظِّـــف أحرفًـــا، ويســـخِّرُ
كـــم صـــاغَ مـــن آهٍ وأنّـــة نـــازحٍ
ومـــن المـــآتم صـــيحة تســـتنفرُ
وحنـــى عـــلى هـــام الشـــهيد يضـــمُّهُ
مســـــتلهمًا غاياتـــــهِ ويصـــــوِّرُ

حتـى غـدا حلمـًا يلـوح حُقيقـةً
في ثـــورة مشـــبوبة لا تقهـــرُ

فـإذا أنيـنُ الثـاكلاتِ عواصـفٌ
فتســنُّ ألســنة اللَّهيــبِ، وتــزأرُ

وإذا صراخُ المعـــدمينَ قـــذائفٌ
في كـــلِّ قصـــرٍ مـــاجنٍ تتفجَّـــرُ

وإذا بقيـــة ســـاعدٍ مـــن جـــائعٍ
تلـوي رقـابَ المتخمـينَ، وتعصـرُ

وإذا ضـــياءٌ راضـــعٌ بقصـــورِهم
مـن ظلـمة الأكـواخِ مـا يتحـدَّرُ

مــن عِــرْقِ مقتــولٍ بــدونِ جريــرة
أو مـــن عيـــونِ مشـــرّدٍ يتحسَّـــرُ

أمســى حريقًــا جائعــًا ومفتّشــًا
عــن رأسِ جــلاَّدٍ هــوتْ تتعفَّــرُ

أنعيــدُهُ مــن بعــدِ مــوتٍ حاكمــًا؟
ويعــودُ شــعبٌ مــن جديــدٍ يقــبرُ

يــا مــارقينَ ويــا دُمَــىً في مســرحٍ
صــوتٌ يحــرِّكُ خطوَهــا ويغيِّــرُ

صــوتُ الخيانــةِ في الظــلامِ مجلجــلٌ
ولــه القصــورُ الفارعــاتُ منــابرُ

يتوجَّــعُ الحــرمُ الشــريفُ لوقعِــهِ
ولــه يصــفِّقُ طــامعٌ مســتعمرُ

هــل كــان في أرضِ الحجــازِ يمانيًــا
إلاّ كليــثٍ في الرِّحــابِ يزمجــرُ

فيهــدُّ أصــنامًا ويرفــعُ آيــةً
للحــقِّ في أرضِ النبــيِّ، وينشــرُ

واليــومَ في أعتــابِهم متمسِّــحٌ
الــذلُّ يكســو وجهَــهُ، ويدثــرُ

يــا مارقًــا خلــفَ الحــدودِ كمــومسٍ
يرمــي بهــا شــخصٌ، ويعلــو آخــرُ

ملَّــتْ مراقدُهــا تَقلُّــبَ عابــثٍ
لكـنْ.. فهـل تشكو لمـنْ لا يشـعرُ؟!

مــاذا يقــولُ الموشــكيُّ (بقــبرِهِ)
وجميـعُ مـن مـاتوا لكـي تتحـرَّروا:

أتمـــدُّ كفّـــاً للِّئـــام مقـــبِّلاً؟
أيَـــدٌ بأيـــدينا تطـــولُ وتبتـــرُ؟

ألكـي تعـودَ إلى قعـورِ سـجونِهم
ويُسلـَّطُ السـيفُ القـديمُ، ويُشْـهَرُ

ألغـــيرِ هـــذا ترتجـــي مترقِّبـــاً
لـــو أنهـــا عـــادتْ فلـــولٌ تثـــأرُ

لا لـن يكـونَ، ولـن تكـونَ بلادُنـا
(مدريـــدَ) ثانيـــة وضـــوءًا يقبـــرُ.

قراءة جديدة في تاريخ سدّ (مأرب)

كذبوا إذ ألقوا بالوزرِ على الفأر،
واللَّومِ على القَحْطْ،
واتهموا زورًا ماءَ السَّدْ.
فالتفتَتْ تلكَ الأحجارْ
ضاحكة.. ساخرة ممّا قالوا،
وتكادُ تصيحُ
تناشدُ كلَّ وجوهِ الناسْ
ودماءِ الناسْ:
(خذوني كي أخلِّصَكم
خذوني وارجموا أربابَ محنتِكم
من الأذواءِ والأقيالْ).

وراحتْ تندبُ الأطيارْ
وتبكي هجرة الأشجارْ
وقد غارتْ بعيدًا عن حقولِ (البُنْ)
بعيدًا أعذبُ الأنهارْ،
هنا كانت جِنانُ الله
أضعناها وضيَّعْنا مساكنَنا
وحتى الآن يا (مأربْ)
أقولُ: نكادُ لا ندري
لماذا.. كيفَ غابَ البرقْ؟
وغَيَّرَتِ الرياحُ السَّيْرْ
وكيفَ توقَّفَ الرَّعْدُ؟
وكيفَ تصدَّعَ السَّدُّ؟

متى يا أيها الجوعانْ؟
متى يا أيها العريانْ؟
متى يا شعبُ تدري من هوَ الجاني،
وأنَّ الفأرَ لم يجرمْ
وأنَّ القحطَ أسطورة
وأخفتْ بين أسطرِها
عليكَ حقائقَ الصورة؟!
وكَمْ ذا أوقدوا قبلي
وكَمْ أوقدتُ من نارٍ
تعزِّفُني.. تعزِّفُهم
تعزِّفُكم
تضيءُ طريقَنا يومًا

ولكن أعقموا ناري
ولا حتى (المقة) سمعَتْ
صياحي أو نداءاتي
على دربِ الذي يأتي، ولا يأتي
فآهٍ ليتني جئتُ
وآهٍ ليتني..
من قبلِ أن تنهارَ يا (مأربْ)
أنا متُّ،
ولم أدركْ خرابَ البومْ
وهذا العصر يا وطني.

1974م

رسالة إلى (ناظم حكمت)

القلبُ حروفٌ تخفقْ
وأنا أُطرقْ
مَنْ لي بخيالٍ جامحْ
يعطي حرفي قوَّة طائرْ
فالرِّحلة جدُّ بعيدة
ليلٌ.. آفاقٌ مسدودة
ياليتَ ذراعي تمتدُّ
تصافحُ كلَّ الأحبابْ
وتوزِّع باقاتِ الزَّهْرْ.
يا طيرًا يقتاتُ الكلماتِ العذبة
يشدو للآفاقِ الرَّحبة
حيثُ الحبَّة
تُروى بمياهِ (الفولجا)
والفولجا ينبوعُ محبَّة

يا وجهًا موطنُهُ المنفى
(تركيّا) تطرقُ أبوابَهْ
تمطرُه ُحزنًا وكآبة
جاءتْ تخنقُها زنزانَة
تمشي كفتاة عريانَة
ماذا عن أرضٍ محتلَّة
عن طفلٍ فيها عن طفلَة،
عن شيخٍ سلبَ الجندُ وحيدَه
وعميلٍ يقذفُ في اللَّيلِ حشودَه ْ؟!
ماذا يا (تركيّا) الحرَّة
(ناظمُ) يا أنفاسَ الثورَة
انشرْ باللهِ جناحَكْ
انشرْها حلِّقْ صوبَ الشَّرْقْ
فالشرقُ العربيُّ العملاقْ
حرٌّ يفتحُ أبوابَهْ.

القاهرة 1960م

قلب في الجزائر

حريقٌ شبَّ في بيتي
وكم قطّعْتُ من صمتي
له الأخشابْ
وفي أُفقي
تدلَّتْ راية الموتِ.
إذا أنبأتُكم أني
أناديكم من السجنِ،
لقلتم لي:
فأينَ القيدْ؟
وأينَ السُّورْ؟
وإن أشكو لكم ليلاً من الدَّيجورْ،
لقلتم: ربما أعمى.

ولكني رأيتُ الشَّمْسْ
لعنتُ الشمْسْ
رمتْ كفّي بعيدًا زيتَ مصباحي.
وإن يومًا بكم صحتُ:
أنا مطعونْ،
لقلتم لي: فأينَ الدَّمْ؟
وأينَ السيفُ والخنجرْ؟
ولكني إذا أعطيتُكم عيني
إذا ألبستُكم ريشي
وحلّقْتم على (وهرانْ)..
فماذا قد تقولونَهْ؟

القاهرة 1960م

من أرض الآلهة والعبيد

أودُّ لو أكونْ
ولو أصيرُ طائرًا يحطُّ في الغصونْ
أو نسمة تداعبُ النخيلْ
أو موجة طليقة في النيلْ
أو خفقة الشراعِ ساعة الأصيلْ
أودُّ أن أعانقَ الثرى.. أقبِّلَ الترابْ
أوّاهُ يا مدينة القِبابْ
متى أعودُ كي أصلّي
للشمسِ للنجومِ في سماكِ.
فاتنتي وكم حلمْتُ أن أراكِ
في ليلِ أوروبّا وفي الصقيعْ
بحثتُ عن زهرٍ وعن ربيعْ
وعن قصيدة لشاعرْ
تهزُّني.. تنقلُني من هذه المقابرْ
لعالمٍ حبيبْ

عملاقُهُ ذاكَ العظيمُ "ناصرْ"
ماذا أريدُ من هنا؟!
لا يمني وجدتُها ولا سمعتُ ثائرْ.
وبرتقالُ "يافا"
والعندليبُ ذلكَ المهاجرْ
حكاية قد أغلقوا عليها
نوافذَ وأسدلوا ستائرْ
كم شوَّهوا "لو مومبا"
كم هتفوا بالموتِ للجزائرْ!
يا غربتي يا وحشة الضمائرْ
في عالمٍ غريبْ
وليس يرثيهِ غيرُ عابرْ
أما الأُلى في الظلامِ تاهوا؛
قد جهلوا ما اللَّيلُ؟ ما وراهُ؟
أضاعَهم من فوقِهم إلهُ.

ألمانيا 1960م

بلادي

بلادي شرودٌ بفكري
وإطراقة في فؤادي
نداءٌ تمشَّي بسمعي
وأسلمَني للسُّهادِ
فأمشي وحيدًا
ويمشي معي كلُّ كوخٍ ووادي
وتمشي جبالٌ..
حقولٌ موشَّحة بالسّوادِ
ويمشي حريقٌ كبيرٌ
أنا فيه بعضُ الرّمادِ
وجمّعتُ ريشي
وأطلقتُ نفسي لخفقِ الرياحِ
وقلتُ: "لما" لا أحطُّ على "بُنّة" يا جناحي
فمن حقلِ "بُنٍّ"

ومن أنّة النهرِ فيهِ جراحي
ولاحتْ قُرانا
عيونًا مفتّشة عن صباحِ
وتجهشُ في ناظري ذكرياتٌ
وتسبقُني بالنواحِ
وحنَّتْ حروفٌ
وسالتْ أنينًا بدونِ انقطاعِ
فتمطرُ حزنًا سمائي
وينضحُ بالغيمِ قاعي
ويجرفُني عاصفٌ من عذابِ
ويلوي شراعي
وفي وسطِ هذا الخضمِّ
وبعدَ طويلِ الصراعِ
رأيتُكَ يا شعبُ
أبصرْتُ شطّي ودنيا قلاعي.

القاهرة 1960م

كلمات جمال

كلُنا يهوى كلامَكْ
فنغنِّي مثلُ آية.
كلماتٌ كمصابيحِ الهداية
إنها ريحٌ ورعدٌ وسما
إنها تمطرُ سِلمًا ومحبَّة
إنها كالنيلِ عذبَة
وكأرضِ النيلِ رحبَة
كالضفافِ الخضرِ خصبَة
إنها.. ماذا؟ أجيبوا يا جياعًا يا عراة!
إنها دعوة بعثٍ وحياة
يا لصوتٍ عربي
عادَ للشرقِ الأبي
فيهِ إعجازُ النبي

وتحدّي واندفاعُ الأموي
كان دمعًا في عيوني
وأنينًا كم تلوّى!
خلفَ جدرانِ السجونِ
فوقَ عيدانِ المشانقْ
أو بساحاتِ الحرائقْ
قبلَ أن تشرقَ فينا
تمسحُ الأفْقَ الحزينا
آهِ ما أحلى وأشقى
فمتى تأتي ونأتي
كلُّنا ندخلُ "عكّا"
كلُّنا نفتحُ "مكَّة"
يا جمالْ
يا جمالْ
يا جمالْ

القاهرة–1956م

القحطُ وحاملاتِ الجرار

ما أحاكي؟ وأين وجهُ الطبيعةْ؟
عندَ حقلٍ كم باتَ يبكي ربيعَهْ!
أو بيوتٍ مصعوقةٍ بالفجيعةْ
أين..أين السحابُ؟
أين الرعودُ؟
أين الرياحُ الجديدةْ؟
مرَّ "نيسانُ"
ليتَهُ بعدُ ما مرَّ
ليتَهُ لا يزالُ خلفَ المعالِمْ.
انتظارٌ تطلُّعٌ ودموعٌ
واخضرارٌ ماجتْ به عينُ حالِمْ
أيُّ بؤسٍ ووحشةٍ..
كيف أشدو؟
ما أُغني.. آوّاهُ وسطَ المآتِمْ
يا طيورًا تساقطَ الريشُ منها

أيُّ لحنٍ سوى بكاءِ القوادمْ
آهِ ماذا؟
وكم يهزُّ صعيدي
ينشرُ الغيمَ في سماءِ نشيدي
طيفُ أُمٍّ تشبَّثْت بالوليدِ
لو سألناها عن أبيهِ
لقالتْ: قتلوهُ
في السجنِ أوسجينًا،
أو كانَ قد عادَ–لكن..
من جديدٍ مع الطيورِ يهاجرْ.
زمنُ القحطِ قد عرفناهُ نحنُ
قد أكلناهُ من بقايا الجذورِ
كم حملنا الجِرارَ عبرَ المسافاتْ
تنقذُ الغرسَ تحتَ سطوِ الهجيرِ
أمطري يا دموعُ واسقي ترابًا
يا مناحاتُ بشِّري بالمواسمْ.

أديس أبابا 1968م

حوار مع الشهداء

بعضي يتَّهمُ البعضَ الآخرْ
الأطرافُ السُّفلى
تصرخُ بالأطرافِ العليا
لكنْ لا تقوى أن تصعدْ
أن تسقطَ أثقالَ الكابوسْ
يا عينيَّ الزّائغتينْ
والدّامعتينْ
يا جيلاً يغضبُ بالكلماتْ
كم أسهرني طولُ البحْثْ
في خطبٍ وبياناتٍ جمَّة
في هذا الليلِ الزاخرِبالظُّلْمَةْ
أطرقُ مؤتمراتِ القمَّة
أسألُ عن أمَّة،
فأعودُ ويا بؤسي

في نفسي أبحثُ عن نفسي!
أدعيتي كاذبةٌ
كاذبة في المسجد
أو في الحرمِ المكِّيِّ صلاتي
تحلمُ أحلامي بالآتي:
بالجندِ وبالرّاياتِ.
يا عربًا كانوا في الناسِ رجالًا
يا مُدني
يا تلكَ الفاتحة الأبوابْ
لكنْ للقاتلِ لا للأحبابْ
يا تلكَ الدّامية المنهوبة
لم يُبقِ الأعداءُ لنا فيها
حتى بعضَ حروفِ الأسماءْ
يا نحن ويا تلكَ الأشلاءْ
تأكلُنا "داحسُ والغبراءْ"
نلهو ونقيمُ حدادًا في الذكرى
يا ويلي يا عجبي!

يا حزني يا غضبي!
هل ماتَ الحِسُّ العربي؟
ومتى يحبلُ غارٌ بنبي؟
تسألُ في المدنِ الأحجارْ
كيف تركناها؟
العارَ العارْ
كيف خرجنا نبحثُ عن موتٍ خارجَها؟
تتّهمُ الأشجارْ
يتّهمُ الأجدادْ
تلعنُنا.. تتّهمُ الأحفادْ
حتى نجدَ المطهرْ
حتى يشرقَ فجرُ العودَة
حتى نثأرْ
يا "أبا داودْ"

يا "كنفاني" يا "أبا يوسفْ"
يا "ناصرْ" يا "عدوانْ"
يا آلافَ الشهداءْ
يا أعظمَ.. يا أنبلَ من أنجبَهم زمني
يا معجزة العقمِ السائدِ في وطني..
من أين إذنْ جئتُم؟
هل أبقاكم "خالدُ" في "اليرموكْ"،
أم من جندِ "صلاحِ الدينِ" لنا عدتم،
أم خلّفَكم "عبدُ الناصرِ" فينا؟
صحتُم لا.. لا..
وأشرتُم لي نحوَ الخيمة.

بكين

أيام ما بعد الإجهاض

بجنودٍ أكثرَ عددًا
وسلاحٍ أفتكَ من ذي قَبْلِ
يخترقُ الركبُ الشارعَ
والناسُ الناسْ
أيدٍ مُدَّتْ للتصفيقْ
وعيونٌ تبصقُ من في الرَّكْبْ
والأفْقُ ضريحٌ للنورْ
ولصوصٌ يحرسُها الدّيجورْ
باتتْ تعتصرُ الأشلاءْ
تتخطَّى جثثَ الشهداءْ
كي تصعدَ نحوَ القمَّة
لتعيدَ إلى اليمنِ الظلمة.
إني أسألُ هذا الإطراقْ
وشرودًا يلتهمُ الآفاقْ

أسألُ مدَّ الليلِ السادرَ في الإغراقْ:
كيف العودة؟ أين الفَجْرْ؟
أين الثورة؟ أين دماءُ الشهداءْ؟
أين أناشيدُ الشعراءْ؟
يا أغنية الأمسِ انتحبي
يا ألفاظًا عادتْ تنكرُ صاحِبَها
فتمزِّقةُ ويمزَّقها
ويصيحُ بزوجتِهِ المسكينةْ
ماذا.. ماذا تنَتظرينة؟
ومُدَى ألَقي تقطعُكِ
ومسالكُهُ سدَّتْها جدرانُ الحلكِ
فلترميهِ قطعًا من دمْ
ما دامَ بلا أذنينْ
وبلا عينينْ
وبلا فاهٍ يصرخُ بالإثنينْ:
أمّاهُ..أباهْ.

صنعاء

العقم

كان النجمُّ كمحتضرٍ
والأفْقُ جنازٌ والليلُ ضريحْ
والشطُّ يبابٌ، إلاّمن سفنٍ تسألُ عن ريحْ
وأنا هذا الملاَّحُ المجنونْ
أضربُ بالمجذافِ شمالًا ويمينْ
أضربُ لكنَّ الماءَ ثقيلٌ كالطينْ
أهتِفُ في سمعِ البَحْرْ:
خُذني يا بحرُ إلى منأى
هَبني قطعة أرضٍ لم تُعْرَفْ.
فيردُّ البَحْرْ:
"ارجعْ يا مسكينْ
كيف تأخَّرْتَ إلى اليومْ
وأتيتَ معَ القرنِ العشرينْ".
ماذا..ماذا؟

أأعضُّ حسامي كـ"بروتسْ"؟!
أشدو بسقوطِكَ يا حبّ؟
إني أسألُ عن مدنٍ لاتُبْنى
عن لفظٍ أمنحُهُ معنى
عن وترٍ يسكبُ لي لحنا
عن وجهٍ أعرفُهُ
لكنْ..أينْ؟
ومتى قد ألقاهْ؟
والعمرُ خريفًا وشتاءً أحياهْ
فاحطبْ يا ريْحْ
كلَّ الأشجارْ
فالأرضُ امرأةٌ عاقرْ
راحت تشكو عُقْمَ الأمطارْ.

القاهرة -1960م

الدموع

إلى زوج الشهيد "لومومبا" و أطفاله

صعَّدْتُ الآهَ وأطرقْتُ
وقبرتُ حروفًا ونبشْتُ
وحبسْتُ الدمعَ..تمالكْتُ
وبلا أسفٍ قلتُ:
لو أني حجرٌ مُلْقى
شيءٌ لا يأكلُهُ الصمتُ
وأنا ألمحُ أفراخًا
زغبًا ما طارت بعدُ
وعليها عشٌّ ينهدُّ
يا ليلاً بطريقي يمتدُّ
يا حزنًا ليس له قاعٌ أو حدُّ

يا صوتَ امرأة حاسرة الرأسِ
تبكي تصرخُ في الناسِ:
"ماتَ الرجلُ
سقطَ البطلُ
أين الأيدي.. أين الأيدي؟
إني أرسفُ في قيدي".
ماذا.. ماذا؟
وسؤالُ الغاباتِ إلى الأشجارْ
أين الريحْ؟
وأين النارْ؟

القاهرة -1960م

من أغاني العودة

على طريقِ الليلِ، التقيتُ بالنهارْ
فصدِّقوا أو لا تصدِّقوا
فشمسُهُ تدقُّ بابَ كلِّ دارْ
أوّاهُ كيف أُمسكُ الأفكارْ؟
وكيف ألحقُ العبارة
مثقلة بالآهِ والبشارة؟
فهذه جدرانُ سدِّ (مأربَ) المنهارة
تساقطتْ أوضارُها
لكنها أحجارُها
ما أروعَ الصمودَ في الحجارة!
تماسكتْ أمامَ كلِّ عاصفٍ وغارةْ
رافعة لراية الإنسانِ والحضارةْ
والخصبُ..يا لخُضرة التلالْ!
إذ فوقها يردِّدُ الشموخُ في الجبالْ:
"تبدَّدي أيتها الرمالْ
لن تشربي غيرَ الرياحِ والمُحَالْ".
بُشْرى لكم
يا أيها الجياعُ والحفاة والعراةْ،

الصارخونَ في فنائِهم:
أنا على قيدِ الحياةْ.
بشرايَ عادَ الشعرُ بعدَ الانقطاعْ
وغائبي بعدَ الضياعْ
إني أراهُ يمسكُ الشراعْ
إني أراهُ "ذو نواسَ" سيدَ البحارْ
على طريقِهِ ترامتِ المزارعْ
تطاولتْ مداخنُ المصانعْ
ما أروعَ الزحامَ يغرقُ الشوارعْ
والكلُّ حولَهُ
مصفِّقٌ وخاشعْ!..
"يا يومُ كنتَ الحلمَ في العمرِ
تغايرتْ فيه مقاطعُ الشعرِ
"يومٌ منَ الدهرِ لم تصنعْ أشعَّتَهُ
شمسُ الضحى بل صنعناهُ بأيدينا ".
فاخضوضري يا أرضُ
وانزلْ يا مطرْ
تألَّقي يا شمسُ
وارقصْ يا قمرْ
يا كلَّ شيءٍ عادَ وجهُهُ
وكانَ قد أضاعَهُ

وافتقدَ الأوصافَ، رافقَ السهرْ
ويا شهيدًا ارتمى جسرًا لعائدٍ لكي يمرّ
مفترشًا له الطريقْ
أو غاصَ في بحرِ الدماءْ
أوَّاهُ.. باحثًا عن الغريقْ
يا كلَّ هؤلاءْ
عدتم فيا لَروعة اللقاءِ
تعانقوا.. تصايحوا
هزُّوا مدارجَ السماءْ
"قابيلُ" ليسَ مني
إني هنا
لأخُوتي ووحدتي أُغني
وليسَ مني "دوسُ ثعلبانْ"[1].
ولا، ولا "ذو جدنٍ"[2].
يا هذه السهولُ والجبالْ
يا هذه الوجوهُ والوديانُ
يا وطنْ!
أقسمُ لا أزالُ في صنعاءَ..
في "عدنْ"

---

(1) الذي اتصل بالرومان قبل الغزو الحبشي الروماني.
(2) الذي تعاون معهم بعد الغزو.

أوَّاهُ ذلك الفتى
وأنتَ قد أنجبتَهُ
أشقيتَهُ
أسعدتهُ
أيتها الحبيبة "اليمنْ"
فباسمِ كلِّ قائدٍ
موحِّدٍ وفارسْ
وباسمِ أطفالٍ لنا
أريدُ أنَ أراهمُ العرسانَ والعرائسْ
وباسمِ هذا الشعبِ،.. يا لَهُ من حارسْ
تراجعي أيتها الحشودْ
تساقطي من بيننا أيتها المتارسْ
تباعدي أيتها الأشباحْ
والتئمي أيتها الجراحْ
يا "عامر [1]" يا آخرَ الموحِّدينَ قمْ
"شمسانُ" قد أتى معانقًا "نُقُمْ"
انطوتِ المسافةْ
حقيقة سادتْ على العرافةْ
وشاهتِ الأوهامُ والخرافةْ.

(1) إشارة إلى (عامر بن عبد الوهاب)

عطشان عند السواقي

يا شمسُ يا مشرقة
على أحبِّ الحقولْ
يا ليتني.. ليتني
ياليتني خيطُ نورْ،
يُلقي ذراعَ العناقْ،
على زهورِ الجبلْ
ويلتقي بالبناة
في عصرة بالطريقْ
بين القرى والمدينة.
فتنتي يا (صِبِرْ)
فكيف حالُ الشجرْ
والشمسِ بعدَ المطر
وبائعاتِ "البَلَسْ"..

يا دهشتي والذهولْ
في هجرتي كالطيورْ
نشرتُ فوقَ الغيولْ
حلَّقتُ عند السواقي
بلهفتي واشتياقي
لكنني ما نزلْتُ
وماءَها ما لمسْتُ
رجعْتُ عطشانْ
عطشانْ.

مع الوجهِ الذي أرفضُه والوجه الذي أبحثُ عنه

لماذا أهتزُّ إلى هذا الحدّ؟ أرتجُّ بلا زلازل؟ فهذا جدارُ البيت لا يتداعى، وتلك الأشجارُ في الشارع واقفة، وإن كان الشتاءُ قد عرّاها من الخضرة والأوراق، وأثقلها ببكاء غير معلن، فلماذا أنا أترنّحُ تحتكَ بين الوقوفِ والسقوط، يا هذا الرأس الذي أطرقَ ولم يرتفع، وما عادت تحرّكه أو تطوّح به حتى الخمرة منذ 5 حزيران، ليتكَ تركيبة تُخلع وتُلبس عند الحاجة، سأرميكَ لأرتاحَ من أثقالِك بعضَ الوقت،.فهل ألعنُك أم ألعنُ القدمين أم الأرضَ الرخوة؟؟ هل أحقدُ على الرياحِ، أم على المصدّاتِ المتهاوية؟ أين ذلك الصوتُ الذي انتشل "دانتي" في مداخلِ الجحيم عندما صاحَ به:" وأنت يا أيها الإنسانُ الحيُ هنا، باعدْ نفسَكَ عن هؤلاءِ التعساءِ الذين لا يكونون أحياء.. أبدًا عُراة، أمعنتْ في لسعِهم الزنابيرُ وذبابُ الدَّواب ". كيف يسود على عنفِ هذه العواصفِ المدمّرة؟ وإلى متى؟؟

ولستَ باللَّقيطْ،
ألقتْ به زانية على الطريقْ
وأينَ أنتَ؟ أينَ الله؟
أوَّاهُ يا (محمدُ بنُ عبدِالله)
فلي شفاعة لديكْ.

"ولكنني تذكرتُ أنني، لما تفجَّرتْ بالخيرِ هذه الصحراءُ، أقمتُ ما أشاء من شامخِ القصورِ هنا وهناك، وملكتُ الغلمانَ والجواريَ من مختلفِ الألوان، فحق اليومَ غضبُه علي وعلى الذين لم يثوروا في وجهي من الدَّهماء1"، وعندما صرختُ مستغيثًا بـ "خالد بن الوليد" واستنجدتُ بنسبي لـ "المثنى ابن حارثة"، وصرخت: يا "عقبة بن نافع" ويا... ويا...عرفتُكم صغيرًا وضيّعتُكم كبيرًا، حتى ضاعتْ مني أسماؤكم وأنا أهرولُ في جبلِ "المكبر" وسيناء والجولان، فلحقني من ذلك اليوم ما لحق "أوديب الملك"، وما لحق صاحبَ امرئِ القيس، حين" بكى... لما رأى الدربَ دونه":

---

1 – هذا المقطع مما أضافه الشاعر في نسخة صنعاء 2004م.

يا أحجارَ التمثال المنتصبةْ
وجذوعَ الأشجارِ المنتحبةْ..
كيف الوقفة في وجهِ الرِّيْحْ؟
أو زهرٍ ينبتُ فوقَ ضريحْ؟!
كيف العودة للأوكارِ إذا سقطَ الطَّيْرْ؟
كيف العودة للينبوعِ إذا غارَ النَّهْرْ؟
وأين أين أينْ؟
وكيف ذلك الطريقُ للرجوعْ؟
أوَّاهُ لا لبطنِ أمّي
بل إلى قاعِ البحارْ
لعلَّني أعيدُ نفسَ ابنتي
عمري وأمّتي ووطني
وأستعيدُ ما تركتُهُ هناك قبلَ السَّيْفْ..
الفأسَ والحجرْ
ومخلبي إذا أردتُ أن أكونَ في البشرْ
أودُّ أن أمرَّ عبرَ الرحلة الطويلةْ
بكلِّ موحشٍ وغابةْ
أودُّ أن أحطِّمَ المذياعْ
أصادرَ اللُّغاتِ والأفواهْ
وأدواتِ القولِ والكتابةْ
وأهجرَ الأشعارَ.. أكسرَ الرَّبابةْ.

بكين 1972م

الشعر و "فيتنام"

عندما تُريحون مدافعَكم، تمسحون برفق مواسيرَ البنادق؛ قال المشاهدون، يشتدّ زحامُكم حولَ شاعرٍ أو مغنٍّ، يتدفقُ الشعرُ بسخاء، كالأنهارِ في أرضِكم، وفي المجرَى يتعانقُ المصبُّ والمنبع، شعراؤكم يتسابقون إلى الميدان، أصواتُهم المنشدة تطغى على أزيزِ الطائراتِ المغيرة، تمامًا كما كان يحدثُ في بلادي العربية في زمنِ المنجنيق، عندما كان الشاعرُ فارسًا، يطيعه السيفُ ويطيعه القلم.. أو كما يحدثُ اليومَ في فلسطينَ المحتلةِ معززًا بأكثر من شاعر شهيد.فهل تسمحونَ لي بالإنشادِ عن بُعد، أن أرجمَ الغزاةَ القتلة؟! وإنْ كانتِ الأحجارُ لم تعدْ تدميهم، ولا الكلماتُ، وإنما ضرباتُكم المتلاحقةُ العنيفة، وحدها القادرةُ على إذلالِهم، أم تنصَحونني بالتراجع، بالكفِّ عن الشعرِ، حتى أعرفُها.. تعرفُني مواقعُ القتال، لكن إلحاحَ خواطري ما عاد يحتملُ السكوتَ، أو الانتظار، حتى أستعيد وجهي العربي، فمعذرة أيها الأحبّاءُ.. معذرة، إذ أستفسركم من خارج المعركة، بعيدًا عن ضفافِ "الميكونج"، وعن بيوت تُهدم وتبنى في قلب "هانوي"..

فهلِ الموتُ يطاردُكم؟؟
أم أنتم أكثرُ من شجعانْ؟؟
أكثرُ من أبطالٍ تعدونَ وراءَ الموتْ؟
تقتلعونَ أظافرَه الهمجيَّةْ
تُقتادونَ إلى الأقفاصِ وُحوشهْ،
عشراتِ.. مئاتِ الأسرى
فتهزُّونَ ضريحَ ضميرٍ ماتْ،

وتصيحونَ بهذا العالَمْ:
هذا الشاهدُ فانظرْ يا هذا العالَمْ
حدِّقْ، بوجوهِ أولاءِ الطيّارينَ القتلة.
يا عاصمة الإنسانْ
"هانويْ.. هانويْ"
يا سيّدة المدنِ المرموقة في التاريخْ،
يا صامدة قهرتْ حطَّابَ العَصْرْ
وغزاة الأقمارِ أو المرِّيخْ..
ما أكتبُ عنكِ؟!
أكتبُ عن نهرِ (الميكونْجْ)!
عن جثثٍ تسبحُ فيهْ،
غطَّتْ كلَّ مياهِ النَّهْرْ
كادتْ أن توقفَهُ
أن تسكتَ فيهِ الأمواجْ؟!
ماذا عن أعرقِ..أروعِ غاباتِ الدنيا؟!
ما أعظمَها تلكَ الأشجارْ..
إذ تخضَرّ،
إذ تتحدَّى عنفَ النيرانْ،
إذ تتفتَّحُ..تخفي ألفَ كمينٍ وكمينْ،
إذ تؤوي أطفالًا فقدوا البيتَ وربَّ البيتْ،

تحميهم عند تساقطِ أطنانِ النابُلْمِ المجرمْ.
ماذا عن مدنٍ تقصفُ ليلاً ونهارًا؟!
فتظنُّ عبيدُ إلهِ الهَدْمْ
أنْ لا عودة للبيتِ وللمصنعِ بعدَ الضَّرْبْ
وتفاجأُ في اليومِ الثاني
بالمصنعِ يشمخُ إذ يهدرْ
بدخانِ البيتْ..
بضياءِ البيتِ وأهلِ البيْتْ،
بمتاريسِ البيتِ تقاتلْ،
يا لَلأشجارْ !
يا لَلزَّرعِ مَدَىً لا يهزمْ!
يا لَلجدرانْ!
تنمو..تكبرُ.. تحملُ إصرارَ الناسِ هناكْ،
وتؤكِّدُ أن لنْ تقهرَ..لنْ تقهرْ،
ما أعظمَ أن تتَّحد القدراتْ!
أن تتحقَّقَ تلكَ الوحدة
بين الإنسانِ وبين الأرضِ/ الأمّ

1971م

"نتاشا"

امرأةً كنتِ،
ولا تزالينَ امرأة!
جميلة وشبقَةْ..
أعشقُها
عشقي أنا للخمرة المعتَّقَةْ؛
يا جمرةً
حارقةً محترقَة
لنحترقْ
حتى نضيءَ هذا الليلْ
ننساهُ ننسى غَسَقَهْ
لنحترقْ فكلُّنا ذاكَ الرمادْ
أوَّاهُ في نهاية الحصادْ..

سيدتي.. أميرتي
فهذه الدُّرا
هيَّا فحلِّقي معي
وباركي من تحِتنا كلَّ السهولِ والوهادْ
يا جنَّتي هذا المساءْ
وكلَّما تكرَّمتْ عيناكِ والزمانُ باللقاءْ
فإنني أرتادُ حيثُما أشاءْ
وكيفما أشاءُ أقطفُ الكرومْ
اللهَ.. كم عصرتُها!
أسقيتُ أبعدَ النجومْ
وقد تساقطتْ جدرانُ مستحيلْ
واستسلَمتْ أعتى وأبعدُ التُّخومْ.

1960م

فلسطين تحتفل بأبنائها العائدين

إن الذين أسقطوا عشرات القتلى من المغتصبين الصهاينة، وسقطوا هم بتشكيلاتهم الفدائية الثلاثية في "الخالصة" و"أمّ العقارب" و"ترشيحا"، لهم أروعُ شهادات جديدة تؤكد قول المفكِّر الفرنسي (جان بيرك): "إن إخلاص الفلسطينيين بتضحياتهم سيعلِّم العالم عدم تقادم التراب والنكبة ".

وبعد سنينَ من القَحْطْ
سنينَ من الجوعِ والانتظارْ
تصايحتِ السُّحْبُ.. راحتْ تلملُم أوصالَها
وشبّتْ رعودٌ.. بروقٌ
عن الطوقِ شبَّ الصغارْ
فعادت إليكِ المواسمْ
فيا فرحة الأرضِ فيكِ
تعانقُ.. تشربُ من كلِّ قادمْ

ويا روعة الاحتفالِ بأبنائكِ القادمينْ
بأسخى وأغنى مطرْ

يسابقُ كلٌّ أخاهْ:
"تقحَّمْ.. تقحَّمْ"
فاني أدوسُ الخطرْ
أنا سيدُ الريحِ والنارِ والموتِ
"سرحانُ" أقوى وأبقى
أنا صاحبُ الأرضِ
أُخرجْتُ منها جنينًا
تشرَّدتُ عبرَ البقاعْ
وها قد عرفتُ الدروبْ
وطلَّقْتُ عهدَ الضياعْ

فشكرًا لأمّي
لتلكَ التي هرَّبتني
بأحشائِها مِن سهام العدوِّ
وفي السنواتِ العجافِ
ولله كم أرضعتْني حنينًا إليها بلادي
وشكرًا له والدي
ويرحمُهُ اللهُ قد ماتَ فيها

"نهاريَّ" "أمّ العقاربْ"
و"ترشيحة" حدّثي عن وصولي

وكيف اخترقتُ جدارًا
من الرعبِ والليلِ والقتلَةْ
وما يشبهُ المستحيلَ
وأسقطتُ ما شيّدتْهُ الجرائمُ والمهزلَةْ

أتيتكِ كالريحِ.. كالبرقِ
كالضوءِ يجتاحُ ظلمةْ
أتيتكِ أحملُ أفراحَ.. أحزانَ أمَّةْ
وكذَّبتُ.. أبطلتُ مفعولَ كلَّ الحواجزْ
فأيُّ انفصالٍ؟ وأيُّ حدودٍ؟
ومَنْ ذا يقيمُ الحواجزَ بيني وبينكِ؟
وجِسمي بأوصالِهِ والخلايا
وقلبي تشكّلَ واشتُقَّ منكِ
فكنتُ
وكنتِ.. فلسطينُ لي فاتنةْ
ويعرف ماضٍ وآتٍ من الأزمنةْ
وتعرفُ "يافا" و"حيفا"
وفي (القدسِ) تعرفُ كلُّ الكنائسْ

وتعرفُ كلُّ المساجدْ
ونزدادُ في البعدِ عنكِ التحاما
ولوعًا.. غرامًا.. هياما
وأزدادُ فيكِ التصاقًا إذا ما
تناثرَ جسمي عليكِ
يؤكِّدُ حقّي
وطغيانَ حبّي
ويسقطُ راية غزو
وينسجُ.. يرفعُ رايَة شعبي
وينسفُ سورًا
ويحرقُ مستوطنَةْ
وما زيَّفوهُ، وما بدَّلوهُ
بدعوى حدود لهم آمنَةْ
وهذا طريقي الطّويلْ
وهيهاتَ هيهاتَ يكبو جوادٌ أصيلْ
جوادي من الريحِ والنارِ.. هذا الحريقُ الكبيرْ
وأذكرُ يومَ "الكرامَةْ"
بداية سيري إلى عودة قادمَةْ
وأوَّلَ فصلٍ من الملحمَةْ

وليس كما عادَ عيسى صليبًا
وليس بديوانِ شعرٍ.. أغاني
ولكنْ بكلِّي
بأطرافِ هذا الكيانِ
فما عدتُ تحتَ الخيامِ
أنا ذارفًا أدمعي
وها قد رأيتَ ولم تسمعِ
بأني أنا النارُ في فوهة المدفعِ
أنا رافضُ الغَزْوْ
بأرضي أنا قاتلُ القاتلِ المدَّعي
وأختارُ..يختارُ شعبي
وتختارُ لي ثورتي موضعي.

بكّين

كلمات إلى أولادي

القادمُ من غيرِ سؤالْ
يتشبَّثُ بي
ويحدِّقُ في وجهي
وكأني اللهْ
وأحدِّقُ فيهِ كالمرآةْ
والحبُّ المجنونُ لَهُ
كم لوَّحَ لي أنْ أقتلَهُ
لأريحَهُ من ويلاتِ الآتي
أرتاحَ أنا يا شعري
أسقطُ قيدًا

آهٍ ما أقساها
ما أثقلَها وأحبَّ قيودَ العمرِ
وأغادرُ شُرْفاتِ المسِّ
وأعودُ أغنّي في نفسي
يا صوتًا يدعو من ينساني
ويعيدُ إلى أرضِ الناسِ مكاني
يا أروعَ ملحمة في شعري
أخشى إن جاءتكَ الآلامْ
وصرختَ تقطِّعُ أوصالي
تسألُني معجزة أو أخرى
وأنا لا أملكُ غيرَ الأقوالِ
خذها كنزًا

قد ينفعُ وقتَ الشِّدَّةْ
في زمنٍ تسقطُ فيهِ التَّعويذاتْ
يبطلُ فيهِ مفعولُ الكلماتْ
فتعلَّمْ من "زينونَ" الحكمة
ألا تحزنَ.. ألا تفرحْ
حتى لو تسكنُ أقصى.. أحلى وأعزَّ الأقمارْ
أو رحتَ تفتِّشُ في الغاباتِ المحترقَة
عن طيرٍ فيها.. عن أشجارْ
فالأيامُ المرتقبَةْ
تخفي ما تخفيهِ لكلِّ الرُّضَّعْ
وتعدُّ الأشداقَ لكي تمضغْ
فإذا ما واجهْتَ الرِّيْحْ

فاصمدْ لا تترنَّحْ
جمِّعْ أنفاسَّكْ.. وتمالَكْ
صُدَّ الرِّيْحَ ولا تهتمّ
لا تشغلْ نفسَكَ مثلَ أبيكْ
حينًا بالحسرة أو بالذَّمّ
أنتَ الخالقُ والمخلوقْ.

بكّين

2
مأرب يتكلم

لو دقَّت الأجراس

أنحبسُ الزئيرَ في حفائرِ الأعماقْ؟!
نتركُهُ في قاعِ سجنِهِ المخيفْ
يأكلُنا.. يمدُّ عندنا مساحة التجويفْ
تحرسُهُ مخاوفٌ.. أشباحْ؟!
أنُسْكِتُ الصَّيحاتِ في الجراحْ
فلا نقولُ حتى "آهْ"؟
أم إنها تعفَّنتْ أوصالُ كبريائِنا فماتْ
على طريقِ الموتِ/ سارقِ الحياةْ
تنخرُنا الدِّيدانُ قبلَ أن تضمَّنا قبورْ
ماذا إذنْ بقى؟
ماذا إذنْ تلبسُهُ أرواحُنا
لو أنها تعودْ؟

لو دقَّتِ الأجراسُ في مقابرِ الموتى
فكانَ يومُ البعثِ والنشورْ
أنكتفي بالقولِ: إننا سفينةٌ
تسيرُ ضدَّها الرياحْ
والعصرُ صوتُهُ بعضُ الطنينِ والنباحْ
أو إننا سِقْطٌ رمتهُ أمُّهُ قبلَ الأوانْ
تنكرُهُ وجوهُ أهلِ الأرضِ والزمانْ.
ماذا عن المقولة التي تقولْ:
الفكرُ شاطئُ الغريقْ
مآذنٌ تقرِّبُ الصباحَ.. تهزمُ الظلامْ
وغابة كم أطلقتْ عواصفًا
كم أفردتْ جناحْ
لمن يريدُ أن يطيرْ
وأن يلامسَ السماءْ؟

واحد من الناس

معذرة إذا غمسْتُ في دماكَ ريشتي
حلَّقتُ في سماكَ باحثًا عن أمَّتي
يا فارسًا.. ماذا تركتَ لي؟
ماذا إذنْ بعد الذي صنعتَهُ أقولْ؟
شوَّقتني للضربِ والطِّعانْ
حقرتَ لي معارك الكلامْ
ما كنتَ قدِّيسًا ولا مسيحْ
بل واحدًا كالآخرينْ
تثقلُهُ الأنَّاتُ والجروحْ
ونظرة تبكي وعينٌ لا تبوحْ
وتمتماتُ ذِلَّة وهمسة انكسارْ:
"يا ليتَ عاصفًا يمرّ
يا ليتَهُ يحرِّكُ السحابْ
يا فرحة الحقولِ لو يطلُّ آبْ".
وظلَّ ما يلوحُ في طريقِهِ

عواصفًا تزيدُ من حريقِهِ
الضيمَ والهوانْ
والخوفَ أن يُقالَ:إنه جبانْ
والثأرَ.. أيَّ صيحة تطاردُ النسيانْ
ما كان شاعرًا جوادُهُ الأوهامْ
أو طامعًا طارتْ به الأحلامْ
والتاجُ والقصورْ
وموكبٌ عليهِ تُنثرُ الزهورْ
وإنما كانَ السجينَ في القيودْ
والغائبَ الذي يودُّ أن يعودْ
يصيحُ في بحارِ التِّيْهْ،
وطفلَنا الذي يبحثُ عن أبيهْ
"أخِيلَنا" الذي طالَ انتظارُهُ
واستفهمتْ "طروادةٌ"عنه الرياحْ
وكم وكم تشوَّقتْ إلى شهيدْ
قيثارة تمنحُهُ قيثارة..يا روعة النشيدْ
وما درتْ بأن واحدًا من جيشِها المهزومْ
في صدرِهِ معاركٌ، في عينِهِ وجومْ

يهمُّ أن يدمِّرَ التخومْ
وذاتَ ليلة
كادتْ تطلُّ من سمائِها النجومْ
وكادتِ الغيومُ أن تهاجرْ
"صنعا" تنفَّستْ دورًا، حدائقًا، منائرْ
وراح "ذو نواسْ"
يعلنُ باسمِ الشعبِ ساعة الخلاصْ
بصوتِهِ المنسوجِ من رعودْ
وسيفِهِ المصنوعِ من ضيا
لكنها
جبالُنا.. وديانُنا أضاعتِ الصّدى
فلم يجدْ وراءَهُ جدارْ
فاقتحمَ البحارَ غاضبًا حزينْ
لعلَّهُ يلقى هناكَ ثائرينْ.

"5 حزيران"

أين قد ألقيتَ بي؟
في أيِّ حفرَةْ؟
أيُّ قاعٍ ضمَّني بعدَ المجرَّةْ؟
ما الذي ألقى عليّ؟
ما الذي ينقذُ اسمي غيرُ ثورَةْ
يا حزيرانَ الجريمةْ
يا حزيرانَ الهزيمةْ
آهِ كم أنزحُ عن أهلي اغترابا
أسكنُ القفرَ اليبابا
وأنا في البيتِ..في وسطِ المدينةْ
بين أهلي وحكايانا الحزينةْ
آهِ كم أفرغتُ بيتي
غيرَ من آهي ومني
وثكالى لم تدعني
آهِ كم أغلقتُ بابي

وتداعيتُ على نفسي، ارتميتْ
وارتمى فوقي عذابي
وتلمَّستُ خلاصًا في حروفي وكتابي
وتصايحتُ وصحتُ
بل بكيتُ
علَّهُ يذهبُ حزني
وتلفَّتُ وأصغيتُ كواهمْ
علَّني ألمحُ خلفَ الليلِ قادمْ
ألمحُ الفجرَ المدَّمى في المآتمْ
أسمعُ الرعدَ وبشرى بالمواسمْ
فإذا الأصواتُ حولي
جوقة فيها بكائي وغنائي
وملايينُ الأكفّ
ضارعاتٌ للسماءِ:
ربِّ ما خابَ رجائي
آهِ يا "فتحُ" الفدائي

السَّجّان واللَّيل

وقفتُ حافيًا وعاريًا إلاّ منَ الظلامْ
وجدتُني أغوصُ في الزحامْ
وحدي أجوبُ ساحة المكانْ
تحسَّستْ يدي أصابعي
فربما كانت تآكلتْ..أصابَها الجذامْ
حتى اللسانُ في فمي
تململتْ..والصوتُ والإلحاحُ والرياحُ في دمي
الصوتُ داخلي في الليلِ والنهارِ يرتمي
يصيحُ: هل هنا؟ ومَنْ هنا؟
وأين أنتَ؟ أينني أنا؟
أم إنَّ هذه مدمِّرةْ
تدفنُنا من قبلِ أن نموتْ
تقبرُنا بداخلِ البيوتْ

وبين عاصفٍ من الحنينِ والصياحْ
فتَّشتُ عن مواقعِ المصباحْ
أشعلتُهُ فما أضاءْ
رميتُهُ بزيتِهِ العقيمِ جانبًا
خرجتُ أبتغي كرامة السَّما
وجدتُها تساقطتْ بوارقًا[1] وأنجما
فأصبحَ الكلامْ
حتى مجرَّدُ الكلامْ
عن الصباحِ في دقائقِ الأحلامْ
خرافةً كمنْ يحدِّثُ الأيتامْ
عن عودة الأبِ الفقيدْ
"اسبارتكوسُ "كان عادْ
ومن جديدٍ فجأة يموتْ
لا تسألوا: متى إذن؟ وكيف؟
وأين..أين..أين؟

1 – في نسخة بغداد آلهة وأنجما

بطلقة..بخنجرٍ أو سَيْفْ!
وأين قبرُهُ بين القبورْ
فهذه جريمة في اللَّيْلْ
والليلُ لا يبوحُ بالأسرارْ
إلا لقاتلينَ أو لصوصْ
أو لكلابِ الصيدِ والنسورْ
يعطي حقائبَ الأحرارْ
رؤوسَهم في أغلبِ الأحيانْ.
ما كانَ أروعَ النهارْ
وإنما إذا حملتُمُ المغيبْ
ما أروعَ الطلوعَ والشروقَ من جديدْ
للشمسِ بعدَ وحشة المغيبْ.

عندما يحكم الشعب

مـــاذا يخـــطُّ؟ ومـــاذا يتـــركُ القلـــمُ
وأحـــرفُ النـــارِ في الأعـــماقِ تضـــطرمُ

وتنشـدُ الصـمتَ حتمًا.. بعـضَ أجوبـة
عـــن سربِ أســـئلة في الجـــوِّ تـــزدحمُ

وكيـفَ لي.. كيـفَ لي تحقيـقُ معجـزةٍ؟
وكيـــفَ في لحظـــة أبكـــي وأبتـــسمُ؟

وأفقُنـــا غـــائمٌ ضـــاعتْ معالِمُـــهُ
فالضـــوءُ مرتبـــكٌ بالـــسُّحْبِ يلـــتطمُ

ونـــائحاتٌ بكـــتْ في كـــلِّ منعطـــفٍ
أو قريـــة لملمـــتْ أنقـــاضَ مـــا هـــدموا

مـاذا.. وهـل علمـوا مـا قـد أرادَ بـهم
حقـــدٌ يعـــذِّبُهـــم، أو طـــامعٌ نَهـــمُ

لكـــي يحيـــلَ أناشـــيدًا نردِّدُهـــا
إلى عويـــلٍ وإطـــراقٍ، ويقـــتحمُ

بيوتَنـــا هاتكـــًا شـــيئًا نقدِّسُـــهُ
شـــيئًا لمـــسمعِهِ يغلـــي.. يجـــفُّ دمُ

بـل نازعـًا بسـمة لاحـتْ علـى شـفةٍ
عـــلى وليـــدٍ لنـــا في خطـــوِهِ نغـــمُ

لسـنا قطيعًـا مـنَ الأغنـامِ يحرسُـها
ذئـبٌ تـربَّص فيهـا، وهـيَ تختـصمُ

وإنـما أمَّـــة فـوقَ الـسِّماكِ مـشتْ
كـانت مـلاذًا وفيهـا كـان يعتـصمُ

لـو أنكرَ الفجرَ معصوبُ العيونِ فهل
شـمسُ النهـارِ انتهـتْ أو أطبقـتْ ديـمُ؟

إنـا كـسرْنا قيـودًا يـومَ ثورتِنـا
وأُسـقِطَ السـجنُ والسَّـجّانُ والظلـمُ

إني أقـولُ وقـولي لـيس فيــهِ صــدىً
لهـامسٍ في الـدُّجى يسـعى لحكمكـُمُ:
إنَّ الحريــقَ عــلى الأبــوابِ مــشتعلٌ
والـريحُ مـن خلفِـهِ تعـوي: "أيـا نُقُـمُ"
أثــورة تنتــهي والــشعبُ خالقُهــا؟
والشـعبُ مـن طبعِـهِ يُمْـلي لمـن ظلمـوا
محـــــدِّدًا زمنـــــًا.. آتٍ لـــــصيحتِهِ
فيــهِ لمــن جهلــوا أو مــسَّهُم صــممُ
وفي غــدٍ ســنرى للــشعبِ محكمــةٌ
وشعبُــنا عــارفٌ مــن ســوفَ يتّــهمُ.

فتاة "صِبِر"

لو أنَّ عاصفًا بساعة المطرْ
أو فارسًا بموكبٍ عبرْ
لما التوى في الدربِ جيدُ سائرْ
ولا تلفَّتَ الحجرْ
و إنما عابرةٌ
روائحُ الحقولِ والشجرْ
وغنوةٌ من الغجرْ
تجيبُ كلَّ سائلٍ عن الفَجِرْ
بأنها من الجبلْ
لا تهبُ المحدِّقينْ
سوى ابتسامة سريعةٍ، وتعبرُ السبيلْ
راميةً رداءَها الطويلْ
على التلالِ تحتَ خصرِها النحيلْ
حاملةً هديَّة الحقولْ
تينًا..سفرجلاً..ليمونْ
كم يثقلُ الغصونْ
وكم وكم تخجلُهُ في السوقِ صيحة العيونْ.

الأصواتُ من الدَّاخل

"اكتبْ.. اكتبْ"
ماذا أكتبْ؟
ما يمكنُ أن يفعلَهُ الشِّعْرْ
للسَّاهرِ في خطِّ النارْ
للجائع والعاطشِ في الأحراشْ
أيفكُّ حصارًا عنهم في "عجلونْ"؟
الماءُ، الخبزُ، وبنكُ الدَّمِّ
مدافعُ... قذائفُ... مؤنْ
يحتاجُ لها الثُّوّارُ اليومَ وليسَ الشِّعْرْ
فيردُّ الصوتُ من الدّاخلْ:
"اكتبْ"
برِّئْ نفسَكَ قبلَ فواتِ الوقْتْ..
ماذا عن حكمٍ عربي
ينكرُ أصواتَكَ أو غضبي،
ضربتْ لليومِ التالي حشدَ الثُّوّار!

تقطعُ كالمنشارْ
تكوي..تحرقُ كالنارْ؟!
لكنْ هل تشتعلُ الأحجارْ
ما لم يندفعِ البركانْ
هل تتحرَّكُ من موقِعها وبلا زلزالْ
في وقتٍ يتعرى فيهِ البحرُ.. يغيبُ الطوفانْ
يا ساعاتِ البركانِ اقتربي
يا ساعاتِ الطوفانِ اقتربي
فدمائي أغزرُ من مطرٍ
أحقادي أمضى من شهبٍ.
بُشْرى يا بحرُ فلا تهتمّ
وَسِّع نفسَكَ، عمِّقْ قاعَكْ
فإليكَ إليكَ اليومْ
يجتاحُ الوادي سيلَ الدَّمّ
لا..لا...
لا تستفسرْ من أينْ؟
ليسَ الوقتُ الآنَ أوانَ الشَّرْحْ:
كم عددُ القتلى؟
كم خلَّفَ من أبناءْ؟

ما اسْمُهُ؟ كم عمرُهُ؟
هذا أو ذاكَ المقتولْ؟
لكنْ لا تنسى أن تسألَ.. أن تعرفْ:
من كانَ؟ وأينَ القاتلْ؟
من أرسلَهُ؟ من سلَّحَهُ؟
ولِمَ؟ ولمنْ؟
من كانَ الآمرَ في القَصْرْ
ما أصغرَهُ..قصرٌ شاهقْ
ما أحقرَ من فيهِ
لو يشعرُ أو يدري..
سلْ يا بحرُ..استفهمْ عمّا شِئْتْ
ودَعِ الطوفانَ يعيدُ الكرَّةْ
هذي الأشجارُ المحطوبةْ
بحقولٍ كانتْ مخضرَّةْ
من أرضِ "الشّامِ" إلى "يمنِ" الأيتامْ
من "بغدادَ" ووادي "النيلِ" إلى "وهرانْ"
تمتدُّ إليكَ الآنْ
أيدٍ وعيونٌ محمرَّةْ
سائلةً.. صارخة :؛ أينَ الثورَة؟

وتحيطُ وتلتفُّ الأفعى
يمتدُّ فحيحٌ وفحيحْ
ويظلُّ الصوتُ يصيحْ
فإذا بي أقعدُ ثمّ أقومْ
وأردِّدُ: من أينَ الأصواتْ؟
من ذا يخطبُ؟ أين المنبرْ؟
وأجوبُ البيتَ أفتِّشُ فيهِ
وأتمتمُ: هل أنا في الجامعْ؟
أتلفَّتُ لكنْ ما وقعتْ عيني في وجهِ مُصَلٍّ
أوَّاهُ وأين المسجدْ؟
وقرأتُ به آياتٍ منْ "سبحانْ"
أوَّاهُ وأين الأقصى؟
من أبعدَهُ عني؟ من يبعدُني عنهُ؟
وتساءلتُ كما لو كنتُ اثنينِ أو أكْثَرْ:
هل أنتَ نبيّ؟
أنسيتَ لمن يُوْحى؟
فاستغفرتُ اللهَ وقمْتْ.

***

وجدتُ نفسي شاخصًا

وذاهلاً أوَّاهُ عندَ بابِ خيمَةْ
تمسكُ بي ثكالى
ويمسكُ اليتيمُ واليتيمةْ
كم طالَ عند أهلِها النواحْ
في حلكِ الليلِ تغنِّي للصباحْ
وكلٌّ من بها..
يا كم تكوّموا من قلَّة الدَّفا
قالتْ.. وأكَّدتْ تلكَ الليالي في الشتاءِ:
كم جاعوا.. وكم ماتوا..
يموتونَ بجوعٍ وظمأْ
على طريقِ الفجرِ في الصَّحراءْ
وحينَ هبَّتِ الرياحُ من جديدْ
بعنفِها الجديدْ
مطلقة قواها والسّمومْ
تريدُ أن تأتي على بقيّة الخيامْ
وكلِّ ما تحملُهُ الصحراءْ
تأتي على واحاتِ "عبدِ الناصرِ" العظيمِ في الصحراءْ
أخرجتِ الخيامُ ثأرَنا
بالعشراتِ.. بالمئاتِ.. بالألوفْ

فوارسًا أقامتِ الجدرانَ من أجسامِها..
وصدَّتِ الزُّحُوفْ
أعادتِ الأرواحَ للأجسامِ من نصفِ الطريقْ
ذكرتُ عامَ "الفيلِ" والإنقاذْ
وقصَّة الطيورِ تُنزلُ الفناءَ بالغزاةْ
وتصفعُ الدَّخيلَ و العميلْ
واعدة "مكّة" الحزينةْ
بالفجرِ والمآذنْ
يا "وَرْقَة بن نَوفلٍ"
يا "ابنَ أبي الصّلتِ" ويا "أميَّةْ"
يا "خالدَ" "اليرموكُ" لم تزلْ تدعوكْ
ولم تزلْ تدعوكَ "قادسيَّةْ"
عفوًا إذا ذرفتُ دمعةً
عفوًا إذا وقفتُ لحظةً
أشكو لكم وقتًا نعيشُ فيهْ
وقد تحكَّمَ السفيهْ
تطوَّرتْ تجارة الرّقيقْ
وأصبحتْ مدائنٌ تباعْ
أو بلدة بمجملِ السُّكَّانْ

تغيَّرتْ.. تنوّعتْ وسائلُ الهلاكْ
أحاطتِ الأسلاكُ والشِّباكْ
وظهرَ الإشراكُ والنفاقْ
في أحدثِ الأزياءْ
يسيرُ رافلاً بأفخرِ الثيابْ
وساكنًا بأفخرِ البيوتْ
وكثرَ العداءُ والأعداءُ للإنسانْ
وأصبحَ الشعرُ بهذه الأيامْ
مهمّة من أصعبِ المهامْ
ولم يزلْ يصيحُ موقظًا مبشِّرًا
وبالطغاة والأصنامِ والحكّامْ
ما زالَ هذا الشعرُ رافضًا وكافرًا
لا يحضرُ الولائمْ
يقيمُ وحدَهُ في الليلِ أطولَ المآتمْ
يضمُّ أطفالًا تلفَّتوا في اللَّيْلْ
وسألوا مختلفَ الجهاتِ عن آباءْ
وما دروا بأنهم هناكْ
ينازلونَ المشركينَ والغزاة في المعاركْ
اللهَ.. ما أعظمَهم!

ما أروعَ التعبيرَ حين تشعرُ البنادقْ
ما أعظمَ الصمودَ والسقوطَ، في الوقوفِ في الخنادقْ
إلى السِّلاحِ للسلاحِ للسلاحْ.

بكّين 5 يونيو، حزيران 1971م

الباحثون عن وجوههم

ونسحبُ أوصالَنا كالسُّكارى
ونبحثُ عن موقعٍ ليسَ فيه سوانا
نذمُّ الزمانَ ونهجو رياحَ اللَّيالي
فنسقطُ من شُرُفاتِ الخيالِ
وتمضي تحدِّقُ فيَّ
وأمضي أحدِّقُ فيكَ
ولستَ الغريبَ لأصرخَ: ما اسْمُكْ؟
وأردفَ: من أيِّ أرضٍ أتيتَ؟
فكأسُكَ كأسي
ونشربُ من قربةٍ واحدةْ
ونلبسُ نفسَ الثيابِ

ونُطرقُ في مأتمٍ واحدٍ
وتلتَفُّ في نظراتِ العيونِ لنا أسئلةْ :
أنحملُ في الناسِ صيحةْ
ولكننا لا نصيحْ؟
كأنكَ لستَ الطعينْ
كأنيَ لستُ الجريحْ
أنصلبُ سرًّا
وأوَّاهُ.. أوَّاهُ أين الصليبْ؟
وأين أنا؟ أين هم؟ أين أنتَ؟
وهيهاتَ.. أين مكانُ المسيحْ؟

اعترافات

مستوحاة من قصيدة "اعترافات في الليل"
للشاعر الفلسطيني الشهيد "عمر فهمي"

يا من يريدُ أن يطوفَ في معارضِ الدَّعارةْ
وأن يرى مشاهدَ الحقارةْ
وكيف تسقطُ الحضارةْ
باللهِ لو قدرتَ تقطعُ الطريقْ
تعالَ مسرعًا لو يسمحُ الحرَّاسُ في القصورْ
من قبلِ أن تغدوا متاحفًا قديمةْ
لكي ترى في كلِّ ساعةٍ وليمةْ
وكيف تحكمُ الجريمةْ.
"جِمالُنا" أفلتتِ الزِّمامْ
إلى متى تحتربُ الأعضاءُ في الأجسامْ؟

فلتسقطي يا راية الخصامْ
عليَّ بالأوراقِ والأقلامْ
فأنتمُ المخلِّصونَ سجِّلوا
سأعترفْ

سأعترفْ:
كنا وما كنا!
نحن الرجالُ الحالمونَ بالرجولةْ
ما أورقتْ فينا وفي أيامِنا بطولةْ
قرأتُ كم بيانْ
قرأتُ أو سمعتُ كم قصيدةْ
كتبتُ كم قصيدةْ
ما أشعلتْ فتيلَ نارْ
لكنها..

ولا أراحتْ صوتَ ثارْ
من قاتلٍ يطاردُ الثوّارْ
ما أسقطتْ من قصرِهِ ولا حجرْ
فلتسمعوا إذنْ
باللهِ أنتمُ الشهودْ
يا أيها الصغارُ في ملاعبِ الطفولةْ
ويا أجنَّة هناكَ في بطونِ أمّهاتْ
أخشى عليها كلَّ ليلة وليلةْ
من طيشِ خنجرٍ يمتدُّ عنوة وغيلةْ

"نابُلْمُ" أو شظايا
قنابلُ لاترحمُ الصغيرَ والصغيرةْ
سيوفُنا ألسنةٌ
هيهاتَ تقطعُ الأصواتُ في الصخورِ..
في الحديدْ
نصيحُ بالطغاة والغزاة ثم نبتعدْ
نتركُهم.. نتركُها أعمارُهم تزيدْ
نسيرُ في الطريقِ ذلكَ المسدودْ
ننتزعُ السِّلاحَ من جنودِنا
نقتلُهم إذا تمرَّدوا
يا ويلَنا يا ويلَنا
أعداؤُنا توغَّلوا هناكَ أو هنا
يزنونَ في أفكارِنا
أوَّاهُ سِرًّا.. عَلَنا
في الغزوِ بالحروفِ.. بالمطابعْ
بآخرِ الموضاتِ في الأسواقْ،
الغزوُ في التصفيقِ والسكوتْ
الغزوُ أخطبوطْ

يمتدُّ في النفوسِ.. في البيوتْ
الغزوُ أن أخافَ.. أن تخافَ أن تموتْ
الغزوُ أن أظلَّ.. أن تظلَّ عندليبْ
يشدو مردِّدًا:
"معذِّبي يا أيها الحبيبْ"
فيا لَنا من كهنَةْ
بلا نفوسٍ مؤمنةْ
يا كلَّنا يا شعراءْ
أسماؤُنا.. أصواتُنا في الطينْ
أوَّاهُ من مهانة الكذبْ
نقولُ للأحبابِ والأصحابِ والأوطانْ:
بأننا نعشقُها.. نعبدُها نحبّ
لكنكَ الوحيدُ في "الخليلِ" في "عجلونَ" في "رفحْ"
أصدقُ من يقولُها
أعظمُ من يكتبُها:
"أحبُّ حتى الموتْ،
أموتُ مرّة ومرّةْ"
أُخرسُ من يقولُ: تنتهي أو قد تموتُ ثورةْ

عرفتُ كيف تُنْتقى أمضى وأصدقُ الحروفْ
يا مُوقفَ الرِّياحْ
يا زاحفًا في الليلِ تحتَ النارِ للصباحْ
يا حاملَ السلاحِ والجراحْ
يا.. يا...
وكم يا.. يا... ومَنْ؟
تقيمُ ألفَ مترسٍ.. قلاعْ
من ألفِ ألفِ شِلْوْ
من ألفِ ساقٍ أو ذراعْ
تساقطتْ.. تكوَّمتْ ولم يقلْ أصحابُها: الوداعْ
وإنما قالوا على عجلْ
وسطَ الدخانِ والحريقْ:
مهما يطولُ دونكَ الطريقْ
واصلْ إلى "حيفا"
واصلْ إلى "النَقبْ".

"رَدْفان" والقرصان

كانتِ الساعة...
لا أدري ولكنْ
من بعيدٍ شدَّني صوتُ المآذنْ
ذهلَ الصمتُ.. تداعتْ في جدارِ الليلِ ظلمةْ
وتمطَّى في دمائي حبُّ شعبٍ
ثم أقعى في عروقي جرحُ أمَّةْ
وأطلّتْ عشراتُ الأحرفِ الحمراءِ أسرابَ القوافي
مدُّ بحرٍ لا يحدُّ
قاعُهُ قلبٌ ووجدُ
صبَّ فيهِ من زوايا الأمسِ حقدُ
والصدى أيُّ حريقْ
أبدًا لن يستريحْ

لم أسلْها..لم أقلْ: من أيِّ غابٍ قد أتيتِ؟
أيُّ أنفاسٍ حملْتِ؟
كنت أدري
ما على "ردفانَ" يجري

كنتُ أدري أن إخواني وأهلي..
أذرعٌ تحتضنُ النورَ وأرواحٌ تصلّي
في طريقِ الراية الخضراءِ والشمسِ الأسيرةْ
وربيعٌ ذاتَ يومٍ كانَ في شبهِ الجزيرةْ
ترضعُ الدنيا شذاهُ وعبيرَهْ
ثم ماذا؟ كيف ضاعْ؟
كيف أضحى جنَّة خلفَ البحارْ؟
رنَّ كأسٌ.. نغمٌ في ليلِ بارْ
و مبانٍ شاهقاتٌ فارعَةْ
آلة دارتْ على الزيتِ..وأينْ؟
يا تُرى آبارُهُ مستنقعَةْ؟

كيف باعتْهُ سلاطينُ الفجورْ
وعبيدُ اللَّهوِ واللذَّة في تلك القصورْ؟
حدِّثينا
يا جبالًا أطرقتْ فوقَ حقولٍ قاحلاتْ
وبيوتًا مستضامةْ
حدّثينا
قد قتلْنا آلهاتِ الظلمِ..
أحرقْنا أساطيرَ الإمامةْ
فلماذا نتركُ القرصانَ واللِّصَّ المغامرْ

يغلقُ البحرَ الذي..
دفعَ الخيلَ إليهِ "ذو نواسْ"
ينشدُ الفرسانَ في البحرِ إذا
لم يعدْ في الأرضِ خيلٌ وأناسْ
كيف.. لا كيف السكوتْ؟
ما الذي يحيا "بأوراسَ الجديدْ"؟
ما الذي فيه يموتْ؟
يا شهيدًا قبرُهُ كلُّ البيوتْ
كنتَ حلمًا بالمآقي
وأنينًا يتلوّى في السّواقي
وصريرًا في القيودْ
ومسيحًا في الصليبْ..
إن تكنْ قد أكلتْهُ..
نهشتْهُ كلُّ أحقادِ اليهودْ
إنه ما زالَ حيًّا
يمنحُ الناسَ وجودًا في الوجودْ
آهِ ما أكبرَهُ
تُنبتُ الأفراحَ للناسِ دماهْ
وخطاهْ
تطلبُ الموتَ ليحيا أبدًا حُرًا سواهْ.

القيود

أمشي ولا أعي
كأنني أمامَ مصرعي
أقولُ مقطعًا
لكنني أرثي به ضياعَ مقطعِ
يا وترًا يئنُّ بين أضلعي
أخاطبُ الجدارَ والجدارُ لا يعي
ولا يبوحْ
وحدي أنا وراءَهُ أنوحْ
ويا قلوبًا كلُّها جروحْ
مشاعري لا تستطيعُ حملَها
أو تغلقُ الأبوابَ دونَها

كم مرَّة حاولتُ أن أكونَ كالأصمّ
نزحتُ خارجَ الحدودِ
فتشتُ عن قبوٍ من الجليدِ
لكنها ظلَّت تشدُّني قيودي..
يا أحرفًا كأنها الجبالْ
مشاعري مشددوة لها
لكنني أحبُّها.. أحبُّها
جعلتُ من قلبي مواطنًا لها
زرعتُهُ بالبنِّ والنخيلْ
بما حواهُ "باوزيرُ" أو "تُبَنْ"
زرعتُهُ..
أسكنتُ في رحابِهِ "اليمنْ".

إلى شاعر فلسطين
في الأرض المحتلّة

من أيِّ غابة قد أطلقَ الرياحْ
منتصرًا في البحرِ للملاَّحْ؟
من أيِّ ساحة أو ملعبِ
أطلَّ فارسٌ بدونِ موكبِ؟
يطيرُ بي في الأفقِ فوق الشُّهبِ
وتارة يأخذُني من غيهبٍ لغيهبِ
سمعتُهُ.. رأيتُهُ معجزة بلا نبي
إصرارُهُ وكبرياؤُهُ يغالبُ الدموعْ
تحدِّيًا لليلِ يوقدُ الشموعْ
والزيتُ من عروقِهِ
والضوءُ من حريقِهِ
سمعتُهُ.. رأيتُهُ يصولُ أو يجولْ
يعيدُ للأذهانِ قصّة الرسولْ
ببابِ "خيبرٍ" أو "مكّة" يقولُ للجنودْ:

"كلاّ بغيرِ النصرِ لن نعودْ".
يا شاعرًا في موحشٍ يصيحْ
من قاعِهِ الذي يقودُ للضريحْ..
باللهِ كيفَ كنتَ طائرًا محلِّقًا؟
كيف تحطَّمتْ أنفاسُهم.. جدرانُهم على يديكْ؟
هزمتَ جيشَهم بلا سلاحْ
إلا من الغناءِ والجناحْ
كيف إذنْ على شجيرة الليمونْ
تنقَّلتْ خطاكَ أو حطَّتْ على الغصونْ
وأنتَ في القيودْ؟
الشجرُ السليبُ باكٍ مُطرقٌ بداخلِ السجونْ..
كيف إذن تهدَّمتْ أسوارُهم وزالتِ الأسلاكْ
وطفتَ رغمَ غاصبٍ ودونَ أن يراكْ
ذهبتَ ترضعُ الحروفَ من عبيرْ
أشجارِ برتقالِكَ الأسيرْ
ترسلُهُ هديّة مع الترابْ
لأسدٍ كم حامَ حولَ البابْ
لكنها جراحُهُ تقعدُهُ.. تسكنُهُ الخيامْ

تجعلُهُ يلتفُّ كالثعبانْ
ويلتوي كحارسٍ على صفا النيامْ
يا قاهرَ الآلامِ في الليالي
يا من سألتُهُ
وكانَ من أشعارِهِ سؤالي
صلَّيتُ في مساجدٍ
على طريقِ الحبِّ والشرودِ والخيالِ
حتى "زيوسُ" نفسُهُ
قد حطَّ من قممِ الجبالْ
أتى إليَّ بالبخورِ والطيوبْ
صلَّى معي لوجهِكَ الحبيبْ
إلهُهُ "يسوعُنا" الذي يحيا على الصليبْ.

القاتل والمقتول

أمسكتُ بالريشة الضريرة
حرَّكتُها فما تحرَّكتْ على الورقْ
أطعمتُها في الليلِ ساعة وساعة من الأرقْ
أسقيتُها من أنهرِ الحنينِ والعرقْ
حتى صعقتُ بالهدوءِ والسكونْ
أحسستُ أنني... فقمتُ تاركًا مكاني
وصحتُ في بئرٍ من الظلامِ قد طواني:
"من سلبَ الكلامَ من لساني؟
من أسكتَ الأغاني؟
من أشعلَ النيرانَ في كياني
مضاعفًا للريحِ ثروة الرّمادْ؟
من طردَ الربيعَ من حقولي؟
أنبتَ فيَّ هذه الليالي
قوادمَ الشرودِ والذهولِ،
زهَّدني في القولِ والكلامْ

تركني كمجرمٍ في قفصِ اتِّهامْ؟
يا ليتَ هذي الأرضَ قطّةً
و ليتَها قد أكلتْ بنيها
ولم أكنْ ابنًا بأمِّهِ زنى
ينقضُّ في أنيابِ شهوة "الأنا"
وينهشُ الأثداءَ والضلوعْ
من جسدٍ أشبعَهُ
مخلَّفًا أوصالَهُ تجوعْ
ماذا إذنْ يا أوجهًا بلا عيونْ
ويا حفاة الفكرِ أيها الطاعونْ؟!
يا ضيعة الذُّقونْ
إلى متى على حقولِنا.. بيوتِنا.. حياتِنا نثورْ؟
نظلُّ حارسينَ للقصورْ
متى إذنْ نفيقْ؟
نحنُ الرياحُ والرمادُ والحريقْ.

على قبر "عبد الناصر"

رجائي إذا ما أتينا
إذا ما سجدْنا
إذا ما انحنينا خشوعًا
وطالَ بنا الانحناءْ
على الشمسِ تسقطُ في فجرِنا
ولكن إلى أينَ..أينْ؟
وفي أيِّ قبرٍ؟
وما أصغرَ القبرَ ينزلُ فيهِ العظيمُ
ونمشي إليه إذنْ كلُّنا
فدعني أواصلُ طولَ الصلاةْ
وآخذُ منكَ الدروسَ
وأقبسُ سرَّ وجودِ الحياةْ
وأعرفُ معنى البطولةْ
وأعرفُ معنى الرجولةْ
وكيف أقاومُ هذا الظلامَ
وأطلعُ للناسِ شمسَ الظهيرةْ
فدعني وإن صحتَ بي هاتفًا
تقولُ لي: الشعبُ تلكَ الجموعْ

أحقُّ وأولى بهذا الخشوعْ
ولولاهُ ما كان فيكم نبيٌّ
ولا عرفَ القدسَ فيه يسوعْ
ولا كان.. لا كان حتى الزمنْ
ولا كانَ هذا النداءُ الحبيبُ الوطنْ
ولا نزلَ الناسُ سطحَ القمرْ
ولا قامَ قصرٌ ليسكنَهُ من كفرْ
ولا اخضرَّ حقلٌ
ولا مرَّ فيه ربيعٌ يغازلُ تلكَ الشجرْ
ويزرعُ للعاشقينَ الورودْ
ويحيي الرميمَ بجسمِ الوجودْ
فأصغيتُ.. أصغيتُ كالرّاهبِ العابدِ
وأمَّنتُ بعدَكَ يا قائدي
ولكنْ بحقِّ الدموعِ الغزارْ
وهذي المناحاتِ في كلِّ دارْ
تهزُّ المناراتِ في "القاهرةْ"
وفي أرضِ "بلقيسَ" في "الشّامِ" في "النّاصرةْ"
رجوتُكَ: باللهِ دعني
أصلّي وأشكو إلى اللهِ حزني
وأقسمُ باللهِ: أني
سأبقى كما قلتَ فينا
لهذا الفدائي أغني

أقيمُ لأعدائِهِ مقصلةْ
لنصنعَ أيامَنا المقبلةْ
أعادَ لنا الروحَ.. هزَّ القبورْ
على الدربِ مد الجسورْ
إلى كلِّ شبرٍ بأرضِ البتولْ
يفجِّرُهُ لَغَمًا في الصدورْ
ويحفرُ فيه قبورَ الغزاةْ
وما أروعَ الهمسَ قبلَ الوفاةْ
تردِّدُهُ يا "جمالْ":
نرحِّبُ بالموتِ نحنُ الرجالْ
ولكنْ على جبهاتِ القتالْ
تحسَّستَ جسمَكَ كـ "ابنِ الوليدِ"
وعاتبتَ فيهِ الجراحْ
وردَّدْتَ: لن أغمضَ العينَ
لستُ الجبانَ
فخانَكَ نبضٌ وكفُّكَ فوق السلاحْ
توقَّفَ.. "أوَّاهُ" قبلَ انبلاجِ الصباحْ.

بكّين. سبتمبر 1970 م

أسئلة عن "ذي نواس"

ما أقسى العيشَ بلا أفراحْ
وتؤرِّقُنا في الليلِ جراحْ
وأفتِّشُ عن حلمٍ في الليلْ
قد يُقْصي من حولي الأشباحْ
فتعودُ إلى العينِ الرحلةْ
برؤى سوداءٍ معتلَّةْ
والحزنُ يفلُّ صدى الكلماتْ
ما أقسى أن نحيا غرباءْ
كالأيتامِ بلا أحضانْ
أزهارًا في قلبِ الصحراءْ
مصباحًا تغرقُهُ الظلمةْ
لا نملكُ غيرَ الدمعِ المُرْ

والوقفة عندَ الأسوارْ..
ويطلُّ سؤالْ
ويغيبُ سؤالْ:
أين الفارسُ يا موجَ البَحْرْ؟
أين القومُ؟ وأين الخيلْ؟
أين الفجرُ؟ وأين حدودُ اللَّيْلْ؟
"أرياطٌ" ما زالَ يدمِّرْ
وعلى الأبوابِ يسيطرْ
و الشعبُ عيونٌ
تبكي "ذا يزنَ" الغائبْ.

القاهرة 1957م

أصواتُ الشهداء

إلى جميع الشهداء الذين أسهموا
بدمائهم في صنع المعجزة في اليمن

تأمَّلتُ في هوَّة الأمسِ من قمّة الحاضرِ
و نقّلْتُ فوق الوهادِ وفوق الجبالِ خطى ناظري
وبعدَ الوقوفِ بتلكَ السُّفوحْ
تساءلتُ: أيُّ مسيحٍ هنا
أعادَ إلى ميتٍ روحَهُ
وشافى بروحِ الطعينِ الجروحْ؟
فقالوا:هنا كان هذا النبيُّ
وكان يرانا ولكننا لا نراهْ
لأنَّ بقايا إلهْ
هنا أُطلقتْ
تقيمُ جدارًا وتنسجُ ليلاً يداهْ

وكان النبيُّ
يمرُّ غريبًا..غريبًا بلا موكبِ
فيصرخُ في الأرضِ قبلَ السماءِ:
أما آنَ يا أرضُ أن تعشبي
وفيكِ من الماءِ تلكَ البحورْ
فميدي بشطآنِها
وصيحي بأمواجِها أن تثورْ.
وقد ظلَّ يصغي إلى همساتِ الحنينْ
وأنَّاتِنا في الصباحِ
وإعوالِنا في المساءِ الحزينْ
وجمّعَها عبرَ كلِّ السنينْ
وقالَ لها والسكونُ صخورْ
تغطِّي رؤوسَ الشجرْ
فتثقلُ أغصانَها بالضجرْ:
"تُرى لن تكوني رياحًا..رعودًا... بروقْ"
فكانتْ وكان الحريقْ
وذاتَ مساءٍ بهيمْ

تفتَّحَ فيها السَّديمْ
وحرَّكَ أوصالَهُ ميِّتُ
وصاحَ وقد نطقَ الصامتُ:
"أنا لم أكنْ بالنبيِّ ولا بالمسيحِ
أنا واحدٌ منكمُ
وكم شدَّني انتظارٌ وعـَّذبني مبهمُ..

أنا العلفي واللُّقيّةْ
وروحُ الثّلايا[1] الأبيّةْ
نجيعٌ على كلِّ دربٍ.
أنا ريحُ غابي..أنا صوتُ شعبي
وقد آنَ أن تعرفوني
فلستم بصُمٍّ ولستُ أنا بالسجينِ".

1 (العلفي) و (اللقية) و (الثلايا) من الشهداء اليمنيين الذين سقطوا في ميادين الشرف بين عامي1955م فكانوا مشاعل في الطريق إلى فجر 26 سبتمبر

دمعةٌ على "جميلة"

لو كان لي نجمة نازحةْ
واحتجزَتْها البحارْ
أو طولُ ما بينَنا من قفارْ،
لو كان عندي وحيدْ
وضاعَ من بينِ كلِّ الصغارْ
وأجفلتْ أمُّهُ
تُسائلُ الأمسياتْ:
باللهِ حقًا أماتْ؟
لو كنتُ في منفى
في قلبِ مقصلة تموتُ فيَّ الحياةْ
ما كان إطراقي الطويلَ..الطويلْ
ما كان في ناظري مأتمٌ،
أو في شعوري عويلْ
ما كان هذا الدمعُ مغرقًا أحرفي
لو لم أشاهدْ "جميلةْ"

بين القيودِ الثقيلةْ
تُلقي دروسَ البطولةْ
رأيتُ فيها ربيعًا هازئًا بالخريفْ
رأيتُ شعبًا في انتظارِ الصباحْ
يمشي إلى النيرانِ مسعورةً
تجنُّ فيها الرياحْ
فتصرخُ الكبرياءْ:
تحجَّري يا دموعْ..والتئمي يا جراحْ
وليحرقوا الغاباتِ حقدًا
وليهدموها البيوتْ
وليعدموها "جميلة"
لكنَّ قهرَ "الجزائرْ"
خرافة مستحيلة.

1958م

عودة "ذي يزن"[1]

يا من تغادرُ القبورْ
يا شعبيَ الذي يثورْ
لا بدَّ أن يعودَ "ذو يزنْ"
وثائرونَ يهتفونَ في "عدنْ"
و"مأربٍ" و"حضرموتَ" لـ "اليمنْ":
غدًا نرى سنابكَ الخيولْ
مجنونة تدوسُ "أبرهةْ"
وتختفي إلى الأبدْ
عيونُ ليلِهِ المشوَّهةْ
فالعائدونَ في الطريقْ
طريقِهم إلى معابدِ القمرْ
عليهِ تنثرُ النساءُ والصغارْ
ما أنبتتْ "صنعاءُ" من زَهَرْ

---

1 أُلقيت في المؤتمر الكبير الذي أقامته (اللجنة الدائمة لمؤتمر الطلاب اليمنيين)بالقاهرة التي تبنت مطالب الجماهير اليمنية في التحرر من الاستعمار في الجنوب والرجعية في الشمال، وتحقيق وحدة الإقليم اليمني كخطوة على طريق الوحدة العربية. وقد شهد هذا المؤتمر الذي أقامته اللجنة بالتعاون مع (هيئة التحرير) سنة 1957م مندوب الزعيم الخالد (جمال عبد الناصر)..

لهم تصفِّقُ الثمارُ في الحقولْ
وطائرٌ على فننْ
مردِّدًا: "يمنْ".. "يمنْ".. "يمنْ"
حرّيّة.. عدلٌ.. إخاءْ
ووحدة.. تنمية.. مسيرة يقودُها "علي"
إلى الأمامِ للأمامِ للأمامْ
قصائدي لها جناحْ
مهفهفٌ وراءَ نسمة الصباحْ
أودُّ أن تدقَّ بابَ كلِّ بَيْتْ
تحكي لها العذابَ أو تقولْ
شيئًا من الثباتِ والصمودْ
فبالدماءِ تكتبُ الشعوبْ
تاريخَها المضرَّجَ المجيدْ
فكم مدينة تحلمُ بالشهيدْ
تودُّ أن تكونَ "بو رسعيدْ"

1957م

3
فلسطين في السجن

الشهيد

إلى كل شهيد يسقط على ترابه مدافعًا ومحرّرًا أينما كان، إلى كل الذين يستبسلون بقتالهم حتى النصر فوق كل أرض معتديً عليها، إلى الذين يتجاوزون ببذلهم حدود التضحيات فيثقلون بحمولة التقاليد الحضارة والتاريخ والإنسان.. ذلك الأب الشرعي للحضارة والتاريخ:

مـــاذا أقـــولُ لزوجِـــهِ ولطفلـــةٍ
أمســـتْ تقطِّـــعُ بـــالحنينِ وريـــدي؟

لـو لم يكـن هـل كـان يوجـدُ محفـلٌ؟
بـل هـل أطلـَّتْ سـارياتُ بنـودي؟

لـــولا شـــهيدٌ يرتمـــي متحـــدِّيًا
طوفـــانَ غـــدرٍ أو حريـــقَ حقـــودِ

هـــل كـــان يحكـــمُ بالجـــزائرِ ثـــائرٌ
لـــولا تمـــرُّدُهُ عـــلى التنكـــيدِ؟

الشعب الثائر

مـاذا أردِّدُهُ؟ وهـل يبقـى لـشاعرْ
شيءٌ إذا نطقَ الرَّصاصُ بكفِّ ثائرْ؟

فهتفـتُ للشـعبِ العظـيمِ و جيـشِهِ
ولغـيرِهِ قطعـتْ إذا هتفـتْ خنـاجرْ:

يـا حـارسَ الأرضِ الحبيبـة فارسـًا
في الـبرِّ أو أجوائِنـا العليـاءِ طـائرْ

حلِّقْ فصـوتُ الشـعبِ أعظـمُ ريشـة
خفقتْ بأجنحة الطيـورِ من الكـواسرْ

آمنـتُ بالشعـبِ المعظَّـمِ ثـائرًا
مـا زالَ يحبـلُ بالكثـيرِ، ولـيسَ عـاقرْ.

كلمةٌ لا بدّ منها

إنني وأنا أقدِّم خطوةً إلى الأمام وخطوتين إلى الخلف في طريقي إلى المطبعة لأدفع بهذا الجهد والمساهمة المتواضعة المخلصة في شكل "قصائد" أعتبرها مواصلة لمحاولات سابقة على طريق السير نحو الأفضل والأجمل باعتبار أن الحياة كلها مشروعات والإنسان واحد من هذه المشروعات وأكبرها والمسؤول الأول عن إنجازها بنضاله الدؤوب والمستمر. في هذا اليوم وأنا أستعرض هذه المجموعة من القصائد مراجعًا ومصحّحًا، وأتابع في الوقت نفسه صور البطولة والتضحية والفداء التي تسجّل فيه اليوم "الثورة الفلسطينية" أروع وأنصع وأنبل الصفحات المجيدة؛ يملأني الإحساس بعدم الرضاء والخجل من موقفي، لأنني لم أتمكّن حتى الآن، إلا من التغني بهذه الأعمال البطولية إلى جانب مساهمة الدعم المادي البسيطة جدًا جدًا والتي أقوم بتقديمها شهريًا، مؤمنًا بأن هذا أقل ما يمكن تقديمه كضريبة دفاع واجبة على كل عربي وكل مؤمن بالإنسان والدفاع عنه وعن كرامته وأرضه ومستقبل أجياله. وإذا بقي لي من كلمة أقولها فهي أن أردِّد من أعماق قلبي مع كل فلسطيني: "ثورة حتى النصر" آملًا وراجيًا أن أتمكن دائمًا من شرف الإسهام في دعم هذه الثورة والارتفاع بهذه المساهمة.

وفي الختام أتوجَّه بقلب مفعم بالحب والتقدير لزوجتي العزيزة التي تحثني دائمًا على الاحتفاظ بكل ورقة تحمل آهة أو فرحة من هذه المحاولات وعلى محافظتها على هذه الأوراق، كما أتوجّه أيضًا بخالص ثنائي وشكري لجميع الأصدقاء الأعزَّاء،

الذين يشجعونني دائمًا برسائلهم المعبِّرة في حالة النزوح أو في الأحاديث عند اللقاء كالأخ زين السقاف، والأخ أحمد عبد المعطي الذي تجمعني به الصداقة والزمالة في العمل، والذي أسهم معي بجهد كبير في البحث والإعداد على إخراج هذه المجموعة من أوراقها المبعثرة لتظهر في هذا "الكتاب" وكذلك الأخ سعيد الشيباني، وكل الأصدقاء وما أكثرهم وما أقلّهم في الوقت نفسه.. راجيًا أن يتقبل القرّاء الأعزّاء هذا الجهد بقلوب عامرة بالصدق وأفكار مشرقة بالمفاهيم، وبصدور رحبة تتسع للإنسان وأعماله.

بكّين – فبراير/ شباط 1971م

خلاصة محضر دفاع

"سرحان بشارة سرحان"

قالوا له: إنك إرهابيّ ومجرم، وقد ألقينا عليك القبض لنقدِّمك إلى ساحة القضاء. فابتسم هازئًا وساخرًا بأقوالهم من وراء القضبان وصاح فيهم: إنكم أنتم القتلة والإرهابيون ولكن أين القضاء؟! ولستُم بحاجة إلى إحاطتي بجنودكم المدجّجين بالسلاح وإلى ممارسة كل جرائم التعذيب هذه لتنتزعوا مني الاعتراف، فإنني أقولها في وجوهكم: إنني أنا "سرحان بشارة سرحان" العربي الفلسطيني الذي عمره عمر مأساة الشعب العربي الفلسطيني، فتحت عينيّ على الحياة وعلى الوجود وأنتم تعملون مع شركائكم في الجريمة من الإنجليز وغيرهم من الإمبرياليين على تحريك كلاب صيدكم من "الصهاينة" لإ نزال الدمار بأرضي ومحو شعبها من الوجود.وها أنا اليوم ورغمًا عنكم أعود إلى الوجود، وقد رضعتُ مع اللبن حبي لأرضي وتشبُّثي بها، ورضعت أيضًا كراهية أعدائها والحقد عليهم، والإصرار على قتلهم أينما كانوا وأينما وجدوا حتى ولو بالظِّفْر والنَّاب إذا لم أجد السلاح. وأعتقد أنني بهذا الحادث الذي أقدمت عليه وأنا بكامل الوعي والإيمان بشرعية ما أقدمت عليه بقتل "روبرت كندي" قد عبرت تعبيرًا بسيطًا عن حبي وتشبّثي بأرضي، وحقدي على أعدائها.. أعداء الحياة والسلام والإنسان، وأكرّر على مسامعكم بأعلى صوتي: أنني أنا الذي أطلقت النار على "روبرت كندي" فأرديته قتيلًا. وكم أتمنى لو كان يوجد في بلادكم القضاء العادل والقانون وسيادة القانون لأقف بساحته وأقول:إنني قد نفّذت حكم الإعدام في واحد من المنتمين

إلى مرتكبي جرائم العدوان ضد شعبي وأرضي وضد جميع الشعوب.

وكان ما يزال يكيل الوعود في "برنامجه" وأنه عندما يأتي إلى السلطة سيعمل على ترسيخ وتثبيت الجريمة التاريخية المتمثلة بـ "إسرائيل" الضاربة الجذور في أمريكا والمتغذّية من الاحتكارات الإمبريالية / الأمريكية بأموال وأسلحة لا تتوقف عن التدفق.

وبعد صمت غبي وإطراق بليد، يحرّكه وخز من ضمير أو صيحة من فكر أو قلب؛ رفع رجال القضاء من الأمريكيين رؤوسهم وقالوا له: إنك قد ارتكبت عملًاإجراميًا متعمّدًا عقوبته الإعدام، ولكننا سننظر في تقارير الأطباء التي تقول: إنك "مختلّ العقل ومصاب بجنون العظمة" فقاطعهم بصوته الغاضب الشجاع، والتحدّي يتفجّر من تعابير وجهه والابتسامة تلازم شفتيه ولا تفارقهما كحلقات القيد الملاصقة ليديه بإحكام وقال:إذا كان حب الأوطان والدفاع عن النفس والأرض في نظركم نوعا من الاختلال العقلي، وضربًا من الجنون فيجب عليكم قبل غيركم أن تعيدوا كتابة تاريخ بلادكم "أمريكا" من جديد وأن تدينوا الثورة الأمريكية وأن تحكموا على قادتها ومفكّريها بالجنون.أما بالنسبة لمفكّري ومحرّري شعوبهم كـ"لينين، ماوتسي تونغ وهوشيه منه، عبد الناصر" طبعًا فإنهم في نظركم من أكبر المجانين، فما أحطَّكم وما أكذب أقوالكم وما أتعس الشعب الأمريكي الذي تحكمه هذه الرؤوس الفارغة إلا من جنونها وراء المال.

أما قولكم عن جنون العظمة بحسب فهمكم لها، فليس إلا مجرّد إسقاطات لنفسيّاتكم الغارقة في الوحل وأوداجكم المنفوخة بورم كاذب يتجسّد في ناطحات سحبكم التي تفضحها الأحياء الفقيرة في "نيو جيرسي" بالقرب من عاصمتكم وغيرها والتي تفضل بعض الأكواخ مبانيها الفقيرة حيث يتساوى الأبيض

والأسود في تلك الأحياء البائسة؛ لأنهم كلهم فقراء ولأنكم أغنياء على حسابهم، ويتجلّى أيضًا فيكم جنون هذه العظمة في عدوانكم على شعبكم وعلى الشعوب الأخرى في أرض فلسطين وفي أرض فيتنام وغيرها.

أما أنا المعتدى عليَّ وعلى أرضي وشعبي فلم يكن ولن يكون عندي هذا المرض، وإنما عندي الشعور بعظمة الإنسان وعظمة الشعوب وقدراتها. وانطلاقًا من هذا المفهوم فإن شعوري بهذه العظمة يتجسد في رفضي ومقاومتي بعنف لكل ما هو ضد كرامتي ومقدساتي وإيماني العميق في رفض شعبي ومقاومته ونضاله المستميت ضد العدوان، والاغتصاب.إذن فطموحاتي لا تتجاوز طموحات أي إنسان مناضل يعمل مع غيره من أبناء وطنه الذين ينفذون كسهام مصوّبة بإحكام، ومن كل الجهات مخترقين أسوار الحصار وقواعد العدوان لتضرب في لحم المعتدي الغاصب حتى العظم سواء في "القدس أو غزّة، أو الخليل، أو اللُّدّ" أو حتى في "عمان"أو "واشنطن" التي يتجهون إليها كإلهٍ منقذ..كل هؤلاء الأعداء من المحتلّين والرجعيّين، أنزلت بهم الثورة العربية الفلسطينية ضرباتها وحاصرهم لهيبها المتعاظم.وإذا استطعتم أن تفهموا هذا المعنى الحقيقي للعظمة فتأكدوا أنني في هذه "الزنزانة"، لا أشعر بالعزلة التي تفرضونها عليَّ ولا أبالي بالآلام رغم فظاعة التعذيب الذي يعكس بحقٍ وحشيّتكم؛لأنني أشعر بأن وطني السليب وشعبي المشرّد وكل شعوب العالم معي بما في ذلك شعبكم الأمريكي الذي لا يزال أشبه ما يكون بطفل بين الشعوب المناضلة العظيمة، وقد بدأ يرفع صوته في وجوهكم مستنكرًا جرائمكم ومتهجّنًا بذلك لغة كفاح الشعوب

بعد أن أنسيتموه بتضليلكم ومهازلكم هذه اللغة. أشعر بزخم هذه الجموع هنا معي تضمد جراحاتي وتشدّ على يدي،

وأشعر أنا بدوري أنني واحد من المخلصين للوطن المغتصب الذين يواصلون بناء الجسور على طريق العودة من أجسامهم.. ما أعظمهم وما أكثرهم إنهم أكثر من مسيح مخلِّص، ومهما دققتم من مسامير على الصلب فإن الصليب لن يضاعف إلا من جحافل المؤمنين بساعة الخلاص والسائرين على طريق الثورة حتى النصر.

"فلسطين" في السجن

أدري أنّ السِّجنَ ضريحُ المسجونْ
لا تدخلُهُ حتى الرِّيْحْ،
وعبيرُ الأرضِ وصوتُ الأهْلْ
حلمٌ لا يتحقَّقُ فيهْ.
متحفُ أحزانٍ لا يفتحُ أبوابَهْ.
إلاّ للسَّجّانِ وأصحابِهْ.
أذكرُ في "بوخن فيلد" رأيتُ الشعرَ المقطوعْ
والأصبعَ عاريةً،
ضيَّعتِ الكفَّ معَ الظِّفْرِ المقلوعْ.
يا صوتَ الحقِّ تكلَّمْ،
قفْ ملءَ مكانِكَ لا تهتمّ،
يا ضيفَ اللَّيلة في المأتمْ.
أنتَ الآنَ على المنبرْ
والناسُ هنا وهناكْ،

أذنٌ تصغي.. عينٌ تقرأْ،
لكنكَ لا تسألُهم رحمةْ
بل تُسمعُهم أقوى.. أروعَ كلمةْ.
وأنا أكثرُ إصغاءً منهم
أكثرُ إيمانًا بالبرقِ يشقُّ الظلمةْ
بالواحة في قلبِ الصحراءْ
بالصوتِ يدمِّرُ سقفَ الصمتْ
يصرخُ بالقاتلِ:قفْ من أنْتْ؟
"روزنْبرجُ" يعودُ إلى المسرحْ،
والشكُّ بعدلِ الناسِ على الأرضْ،
أصبحَ أكثرَ من كفرٍ ويقينْ
أين القاتلُ؟من أخفاهُ.. بل كيفْ؟
من أعطاهُ.. من يعطيهِ الخنجرَ والسَّيْفْ.
يا أبرأَ إنسانٍ خلفَ القضبانْ،
يا سيّدَ أبطالِ العَصْرْ،
يا أصغرَهم سِنًّا
أكثرَهم زهدًا بالأيّامِ وبالتاريخْ.

لم يأتِكَ الوحيُ ولا
ألقتْ غاراتُ النصرِ إليكَ الرِّيْحْ.
أخجلتَ طموحَ الناسِ وشلَّيتَ الشِّعْرْ،
أوقعتَ الشاعرَ في مأزقْ..
هل آنَ لوجهِ الفكرِ بأن يعرقْ،
أن نطعمَ نيرانَ الموقدْ
شعرًا وروايات تحشدْ،
نتعلَّمَ من "لوركا" أو من "إيلوارْ"
لنعيدَ جلالَ اللَّفظِ إلى الأشعارْ.
هبني روحَكَ
هبني صبرَكَ يا "سرحانْ"
أثقلتَ الأرضَ بأحزانِكْ،
لكنكَ ما أنَّيْتْ،
لم تطلبْ عطفًا من سجّانْ،
فتَّتَّ الصخرَ و أيقظتَ البركانْ،
ولويتَ رقابَ الأحجارْ،
وحسرتَ وأغنيتَ بحارَ الماءْ.

لستَ القاتلَ لو عرفوا يا "سرحانْ"
القاتلُ في الأرضِ المحتلَّةْ
كم أحرقَ، كم عذَّبَ، كم يقتلُ بالجملةْ
والحكمُ قصاصْ
وقضاة العدلِ رجالُ الثورةْ.
فلكَ الحقُّ بأنْ تشمخْ
أن تصرخَ ما شاءَ الصوتْ،
أن تقتلَ شيئًا في النفسِ يخافُ الموتْ،
أن لا تشربَ غيرَ الدَّمّ
حتى يعرفَ.. حتى يعقلَ هذا العالَمْ.

أصواتٌ من الأرضِ المحتلة

صوت الأرض:
عاصفٌ في الليلِ أعماهُ الغبارْ،
مرَّ مجنونًا على حقلٍ ودارْ
واهمًا أنَّ الدمارْ
سادَ بل أنهى صغارًا وكبارْ
كلُّهم قد سقطوا تحتَ الحجارْ
كلُّهم حتى جذورٌ في الشجرْ،
أكلتْها النارُ.. مرحى لـ "التَّتَرْ"!

صيحات الغزاة :
صفّقوا للنارِ أو للمشنقةْ
للسجونِ المغلقةْ
واهدموا ثمّ اهدموا
أم يشكُّ اليومَ هذا المسلمُ
في عويل المسجدِ الأقصى... أم لا يعلمُ؟
والمسيحيّونَ هل قد صدقوا؟
أم يشكُّونَ... فيما نسرق؟

أين حجّاجُ المعابدْ؟
أين روّادُ المساجدْ؟
هكذا التلمودُ أوصى
ولذا نحن نجاهدْ.
هكذا علَّمني كلُّ نبي
أقتلُ الأبناءَ من قبلِ الأبِ
أحكمُ الكونَ وسيفي ذهبي،
ابنتي أختي وأمّي كالجنودْ
وأنا القوّادُ في السوقِ أقودْ
إنما وفقَ شروطٍ وعهودْ.
وسلوا "بلفورَ" عني
وبـ "واشنطنَّ" ربًّا لم يدعْني،
إنَّهُ يطلبُ مني ما يشاءْ
وأنا أطلبُ منهُ ما أشاءْ،
ضمَّنا في ساحة السلبِ عناقٌ في اللقاءْ
وتساقينا كؤوسًا من دماءْ،
واسألوا في "فيتنامِ" أبرياءْ.
فاقتلوا يا قومُ أطفالًا وحاملْ
فلقد تأتي بثائرْ

آهِ لو كنّا قتلْنا أمَّ "ياسرْ"
آهِ لكنْ..
كيف فرَّتْ من مجازرْ؟
لم تكنْ في "ديرِياسينَ" اللئيمةْ
لا ولم تسكنْ بـ "قبيةْ"،
ربما نحن نسينا
أنها أمٌّ وزوجٌ عربيّة.

صوت لاجئ فلسطيني:-

كنتُ أدري بكَ قاتلْ،
ثمَّ لصًّا حاملاً اسمَ المهاجرْ،
إنما كنتُ حبيسًا في سجوني
فيكِ يا "قدسُ" و"حيفا" يا عيوني.
آهِ يا أرض الكرومِ
كنتُ ماذا؟
دمعةً أسقي ذهولي ووجومي،
كنتُ في حينِهِ سرًّا،
تارةً أفشي لجاري،
إنما الريحُ وقد شَلَّتْ إزاري
ورمتْ بي في الطريقْ

وتلفَّتُّ ولكنْ مُقْعدا،
صاحبُ الأرضِ ولست السيّدا
إنما السلطانُ والغازي الجديدْ
وقطيعٌ من عبيدْ
حرَّةٌ تمشي وتبغي وتريدْ،
وأنا المصلوبُ والأرضُ الصليبْ،
صارخٌ والليلُ كهفٌ وسياجٌ من حديدْ
ظلمة جنَّتْ وصمتٌ لا يجيبْ!
وعلى الأبوابِ والقربِ البعيدْ
من أحبّائي وأهلي
أرضُنا حائطُ مبكى !
"مكَّة" كـ "القدسِ" ثكلى أو كـ "عكَّا"
وسؤالٌ يتردَّدْ
عن "يسوعٍ" عن "محمّدْ".

قائد قوات الاحتلال:
احمدوني يا يهودْ
واحمدوا بعدي "هرتزلْ"
ثمَّ كلَّ القتلةْ،
حقَّقَ الأفّاقُ حقًّا أملَهْ.

وتعالوا في خشوعٍ
كلُّنا نمضي نصلّي للإلهْ
إنه من بيتِهِ الأبيضِ يعطينا حياةْ.

نشيد أجراس العودة :
عائدون..عائدون.

أصوات المجموعة من الغزاة :
حمدناكَ لكنْ..
فهل تسمعُ؟
أناشيدَهم في الطريقِ و كم تفزعُ
وأصواتُهم بينَنا
ومن سجنِنا ترفعُ.
شاعر من شعراء المقاومة محمود
درويش "في انتظار العائدين":

أكواخُ أحبابي على صدرِ الرمالْ،
وأنا مع الأمطارِ ساهرْ
أنا ابن "عوليسَ" الذي انتظرَ البريدَ من الشمالْ
ناداهُ بَحّارٌ ولكن لم يسافرْ
لجمَ المراكبَ وانتحى أعلى الجبالْ..
يا صخرة صلَّى عليها والدي؛ لتصونَ ثائرْ

أنا لن أبيعَكِ باللآلئْ
أنا لن أسافرَ
لن أسافرَ
لن أسافرْ.
أصواتُ أحبابي تسوقُ الريحَ تقتحمُ الحصونْ
يا أمَّنا انتظري أمامَ البابِ.. إنا عائدونْ.
هذا زمانٌ لا كما يتخيَّلونْ
بمشيئة الملاَّحِ تجري الرِّيْحُ
والتّيّارُ يغلبُهُ السَّفينْ.
ماذا طبختِ لنا فإنّا عائدونْ؟
نهبوا خَوابي الزيتِ يا أمّي وأكياسَ الطحينْ
هاتي بقولَ الحقلِ هاتي العشبَ..
إنّا جائعونْ.
خطواتُ أحبابي أنينُ الصخرِ تحتَ يدِ الحديدِ
وأنا مع الأمطارِ ساهدِ
عبثًا أحدِّقُ في البعيدِ
سأظلُّ فوق الصَّخْرِ.. تحتَ الصَّخْرِ صامدْ.

قائد قوات الاحتلال:
كلامٌ يقالُ فلا تقلقوا،

و "فنتومنا" في السماءِ
و من تحتِها يزحفُ الفيلقُ.

نشرة الأخبار:
بيانات عسكريّة عن ضراوة المعارك في "سيناء"
و "السويس" تقطع حديث قائد قوّات الاحتلال.

قائد قوّات الاحتلال يعود
للحديث مرتديًا رداء "شمشون":

أنا الذي كسرتُ أغصنَ الصَّفصافْ
كانتْ له "دليلةٌ" في آخرِ المطافْ
ثقوا بشعريَ الطويلِ ساحرِ العيونْ
وما وراءَهُ وتحتَهُ من سِرِّهِ المصونْ.

صوت المجموعة من الغزاة يقاطعه:
لكنَّ شعرَكَ الطويلَ في تساقطٍ مخيفْ.

قائد قوات الاحتلال يردُّ عليهم:
لكنه ينمو على الدوامْ
ربيعُهُ لا يعرفُ الشتاءَ والخريفْ.

صوت واحد من مجموعة الغزاة :
"شمشونَ" عصرِنا
قائدَنا رسولَنا إلى إلاهِنا..
ما هذه الزلازلُ التي تهزُّنا؟
وما حكاية الطوفانِ يمشي نحوَنا؟
ماذا إذنْ.. ولا يزالُ عندَنا السفينْ،
ولا نزالُ في "إيلاتَ" في "حيفاءَ" حاكمينْ.
إذا حزمْنا ما لَنا
بل ما أخذنا من متاعْ
من قبلِ أن تخونَنا الرياحُ والشراعْ.

قائد الاحتلال بعجرفته المعهودة :

لا أيها الجبانْ..
إنّا هنا فوق إرادةِ الزمانِ والمكانْ
بالطائراتِ والجنودِ والوعودْ
من ربِّنا إلاهِنا المعبودْ
أقوى من الذي يريدُ أن يعودْ.
صوت آخر من المجموعة :
وإنما هم من هنا ونحنُ من هناكْ

فكيف بالبقاءِ والبيوتُ قد غدتْ
ميدانَ قتلٍ أو عراكْ؟
أحرقنا ما نشاءُ من مزارعْ
ومن معابدٍ ومن بيوتْ
جريًا وراءَ عنكبوتْ
فلم نجدْ إلاّ الذي يميتُ أو يموتْ..
أليسَ من أصوبِ الأمورْ
نداءُ "فَتْح" للحوارْ
فنسبقُ الأيامَ والأحداثْ.

قائد قوّات الاحتلال
مرتديًا ثوب "شمشون":

ماذا تقولُ أيها العميلْ؟
متى إذن كفرْتْ..
متى بشعريَ الطويلْ..
بربِّنا.. بالمالِ.. بالسلاحْ؟
سبحانَهُ نحمدُهُ فليسَ بالبخيلْ
وليسَ ليس ليسَ...

أصوات انفجار في "حيفا" تقطعُ
حديث قائد الاحتلال:

صوت التاريخ:
مادتِ الأرضُ وطوفانُ البحارْ
هائجٌ يبتلعُ السهلَ ويلوي بالجبالْ
يسقطُ المحتلُّ أشلاءً.. نثارْ،
ثورة من حلكِ الليلِ وآفاقِ المحالْ
تُطلعُ الشمسَ وتأتي بالنهارْ.

"غزّة" المنتصرة

أيُّ عينٍ لم يمتْ فيها البريقْ
لم يزل بعدُ منارٌ في الطريقْ
ورؤاها تتنسّمْ
من عبيرِ الشمسِ ما يحدو خطاها
أبدًا ما روَّعَ الليلُ سناها
لا..ولا الغيلانُ تحتلُّ رباها..
أيُّ إصرارٍ حداها
حين تحلمْ
دون قبرٍ، أو على أصداءِ مأتمْ
تحتَ سقفٍ يتهدَّمْ
أو بخيمةْ
كلُّ ما فيها ثكالى
ويتيمٌ ويتيمةْ
ومساءٌ يتهجَّمْ
أبدًا ما توَّجَ النجمُ جبينَهْ.
أيُّ أجواءٍ حزينةْ؟

أيُّ قلبٍ خفقتْ فيهِ الضغينةْ؟
أنتِ "يا غزَّة" يا من تهزئينْ
بعذابِ اللاجئينْ،
وعويلِ الأمّهاتْ،
لتظلَّ الكبرياءْ،
وتظلِّينَ سماءْ.
ويدٌ من سجنِ "عكّا"
ويد من "بيتِ لَحْمٍ"،
رفعتْ نحوَ السماءْ.
لتظلَّ المعركةْ،
تفتحُ البابَ الكبيرْ،
ويعودُ الغرباءْ،
ومصابيحُ الديارْ،
لحقولِ البرتقالْ.
فمتى يحمرُّ أفقُ،
ويضيءُ الليلَ رشّاشٌ وبرقُ؟
وعلى أبوابِ "حيفا"
قبضةٌ سوفَ تدقُّ.

رسالة من لاجئ فلسطيني

إلى غزاة القمر الأمريكيّين

تابعتُ في جرائِد الصباحِ والمساءْ
وما يذاعُ من مسارحِ الفضاءْ
أقامني.. أقعدَني وطارَ بي الخبرْ
صفقتُ للذينَ ينزلونَ في القمرْ
أوشكتُ أن أنسى بأنني
في مقفرٍ وفي مواطنِ البكاءْ
قلَّبتُ كلَّ صورة لكمْ و رَسْمْ
علَّقتُها على جدارِ خيمتي.
وإنما وبين ضجّة احتجاجْ
مجتاحة لنشوتي وصمتي
في منبرٍ يأتي بأعلى صوتِ
وقفتُ ضاحكًا.. أنزلتُها من الجدارْ.
ضحكتُ من نفسي من الممثِّلينَ في الظلامْ

وجدتُ أنها أخبارُ "فيتنامْ"
أخبارُ "فتحٍ" أكبرُ.
هبطتُ من مركبة الخيالِ والضَّلالْ
نزلتُ بالسهولِ.. بالتلالْ
في الأرضِ ساحة النضالْ
معتذرًا للماءِ في البحارْ
وللربيعِ في الحقولِ عاشقِ الشجرْ
لثاكلٍ تكوَّمتْ على مواقعِ الصغارْ
لحاملِ السلاحِ حارسِ الجميعْ.
وقفتُ في خيامِهم
في الليلِ عاريًا بلا حمولَةْ،
فرحَّبوا بمقدمي
كأنهم في فرحٍ وفي اعزِّ ليلةْ.
آمنتُ بالبطولةْ
ركعتُ للمناضلينْ
على أذان: "إننا لعائدونَ عائدونْ
وصامدونَ صامدونَ صامدونْ".

وفي الختامِ أيها الغزاة للقمرْ
أرجو لكم سلامة الرجوعْ
وكم وددتُ أن أكونَ واحدًا من المهنِّئينْ
من بلدتي آتي بأجملِ الزهورْ
لكنها كانتْ ولا تزالُ طائراتُكم
تأتي على الأشجارِ والنباتِ والبيوتْ
وتقتلُ الحياة في الأرحامْ
ولا أزالُ في طريقِ عودتي
أكافحُ الحريقَ بالحريقْ.
وأمَلي أن لا يكونَ للقمرْ
نصيبُهُ من الدمارْ
كـ "هيروشيما" أو كـ "فيتنامْ"
و "القدسِ" موطنِ المعذَّبينْ
اللهِ والإنسانِ والنبيِّ والسلامْ!
فإنَّ ذلكَ المسكينَ والجميلْ،
مسالمٌ وأعزلٌ من السلاحْ
خالٍ من البشرْ

أصحابُهُ..
عشّاقُهُ متيَّمونَ بالخمورِ..
بالجمالِ والغناءْ.
وإنما خمورُهم من الكرومْ
وفي بيوتِهم أو في بيوتِ الأصدقاءْ
قد يشربونَ ساعة اللقاءْ
وليسَ من دماءِ صاحبِ الكرومْ
وزارعِ الكرومِ في "بيسانْ"
لو تعرفونَ أيها الغزاة.

التطهير

إذا عدنا إلى القرآنْ
وصلَّينا لملكِ اللهْ،
رفعنا أضعفَ الأيدي
لعلَّ اللهَ بالغفرانْ
يخلِّصُنا من القيدِ
فمن ذا يمسكُ المصحفْ؟
إذا كانت خطاياهُ
تحاصرُهُ وفي أثوابِهِ تلتفّ!
إذا كانت حشودُ الدمعِ والآهاتْ
تغطّي حولَهُ السّاحاتْ
تصيِّحُ دونما صوتٍ،
وتمشي دونما رايةْ
لتعلنَ أنه الفاسقْ
وإن قالتْ حكاياهُ
بأنَّهُ زاهدٌ عابدْ

مثالُ الوالهِ العاشقْ!
ومن يدري
فلم يعقلْ ولم يخطرْ على الفكرِ
بأنَّ الرّاهبَ المفتونَ قد يزني
وأنَّ مؤذِّنَ المسجدْ
له قد أصبحَ القوّادْ
وعندَ البابِ فوقَ فراشِهِ يعقدْ
وتشهدُ آية اللهِ،
ويُطرقُ ذلكَ المسجدْ!
إذا عدنا إلى التاريخِ والكتبِ
وقفنا عند أقوالٍ لخيرِ نبي
تحلِّقُ بي
بعيدًا فوق هامِ الشمسِ والسحبِ:
أنا عربي.. أنا عربي
فأسقطُها وتهبطُ بي
إلى قاعٍ من اللَّهبِ
إلى بحرٍ من الطوفانِ والغضبِ..
فأين الخيلُ والفارسْ؟

وأين الأرضُ؟ أين أبي؟
وأين الناسُ من أهلي؟
وأين الحقلُ؟ أين الزرعُ في الحقلِ؟
وأين غدًا.. بأيِّ مكانْ
يشيِّدُ بيتَهُ طفلي؟
أنا عربي
تعذبني وتعصفُ بي إلى الميدانْ
ولستُ أنا شجاعًا مغرمًا بالدَّمّ
ولكني أمامَ الموتِ لستُ جبانْ،
أنا إنسانْ
أحبُّ كما تحبُّ الناسُ بل أكثرْ
أحبُّ الوجهَ يأخذُني
وتأخذُ روحيَ اللَّفتةْ،
أحبُّ الأهلَ والأشجارَ والأحجارَ والأوطانْ،
أحبُّ روائعَ الألحانْ،
وعفوًا أيها السّاقي،
إذا أجَّلْتُ أنخابي ليومِ النَّصْرْ.
أحبُّ تبادلَ الأغصانِ لا النيرانْ

ولكني إذا حوربتُ في داري،
إذا ما سرتُ في أرضي بجنحِ اللَّيْلْ،
على أشلاءِ أحبابي
تقطَّفَ كلُّ أعنابي
وقد صادرتُ أمطاري
فقد لوَّنتُ بالأحقادِ أشعاري،
فماذا ترتجي مني؟
إذا أطلقتُ من أعماقيَ الشيطانْ
ومدَّتْ كفُّ أحزاني
حنوطَكَ قبلَ أكفاني.
ساحملُها بلا خزيٍ ولا قلقِ
من الليل إلى الشفقِ
سأربطُها إلى قلبي.. إلى عنقي
ولا.. لن تقطعوا حبلاً
إذا لم تنهشوا قلبي
إذا لم تقطعوا عنقي،
وقد آمنتُ بالعودةْ
إلى القرآنْ.

وها قد آنَ وقتُ الغسلِ والتطهيرْ،
ولكن في بحارِ الدَّمّ.
أنا عربي
فلسطيني يدمِّرُني ويحييني
ويغلق حوليَ الأبوابْ،
يقطِّعُ داخلي الأنفاسْ
ويفتحُ في جدارِ الرُّعْبِ شُبّاكًا ويدعوني
عبيرُ البيتِ والطينِ،
وقد صمّمتُ وسطَ الليلِ في الخندقْ
بأن أنهي لصوصَ اللَّيْلْ
ولو أفنى ولو أحرقْ،
فهذي شيمة الروّادِ في التاريخْ،
وقد قالتْ ليَ النيرانُ والبركانُ.. عصفُ الرِّيْحْ.
وقبلَ الشمسِ ديكُ الفجرِ لا يلجمْ
وكم أحلمْ
بأن تأتي إلى أرضي،
خفيفَ الظلِّ كالعابرْ
كضيفٍ قادمٍ زائرْ

أعانقُهُ وأعطيهِ
روائعَ من كنوزِ الشرقِ.. أرضِ اللهِ والثورةْ.
ولكن أصدقُ الأنباءِ قد سبقتْ
ولكن جئتَ يا ويلاكْ
جِئتَ المجرمَ القاتلْ
فخذ ردِّي
وهل أبقيتُ من عندي
سوى هذا الذي عندي
يفجِّرُهُ ويزرعُهُ لكم حقدي؟

ابتهالات إلى الشعب

علّمتني كيف المسيرُ للأمامْ؟
كيف الوقوفُ ساعة السقوطِ في الظلامْ
زوَّدتني بكتبٍ تفسِّرُ الأيامْ
وكيف تصدقُ الأحلامْ
حدَّدتَ لي وقتَ السكوتِ والكلامْ
والصحوِ والمنامْ
منحتَني كلَّ الشقاءِ والسعادةْ..
والحبَ والإيمانَ والعبادةْ.
علّمتني أن أكتبَ القصيدةْ
لمرّة أو مرّتين أو ثلاثْ
أحببتُ شوقَ الانتظارْ
والسيرَ حتى الانتصارْ
علّمتني أن أسمعَ الرعودْ
قبيلَ أن تطلّعَ السحابْ

أن ألمحَ النجومَ في مجاهلِ اللَّيالْ
يا شعبيَ العظيمْ
يا أيها الغفورُ والرحيمْ
علّمتني كثيرْ
معذرة إذا نسيتُ أسطرًا من الكتابْ
مغفرة فقد أتيتُ أفتحُ الكتابَ من جديدْ
أقرأُ من جديدْ
أصيحُ بالجموعِ من جديدْ:
"ما أجملَ الأوقاتَ والحياة
في عالمٍ ننهي به تَحَكُّمَ الغزاة"
مذكِّرًا بقاتلِ الشهيدِ والشهيدْ
فأرجمُ الطغاة
وأرفعُ الرّاياتْ
فكيف لا نثورْ
كيف لا نثورْ؟
وننفضُ الغبارْ
نمتشقُ الحسامْ

من غمدِهِ على الجدارْ.
يا وطني ما أروعَ الصمودَ في "عيبانْ"
والشمسَ في "صنعاءَ" والنهارْ
والشعبَ في الشموخِ عندما يطاولُ الجبالْ
وعندما رياحُهُ كعاصفٍ جبّارْ
أتتْ على مراكزِ العدوانِ والحصارْ
نحمدُهُ له البقاءُ منجبُ الأبطالْ
وعالمًا بالمدَّعيِّ والجبانْ
وقادرًا إذا أرادْ
يا وطني ويا...ويا...
أنشودتي المفضَّلةْ
سيستحيلَ ألفُ يستحيلْ
أن تستضيفَ القتلَةْ
مدينة الصمودِ يا لَها
كانت وتبقى بطلَةْ
"صنعاءُ" في مزارعِ الكرومِ والأقطانِ والذُّرَةْ
"صنعاءُ" في مساجدٍ مُكبِّرَةْ.

"صنعاءُ" في مواقعٍ على التلالِ ساهرةْ
"صنعاءُ" في مصانعٍ
مدارسٍ تسيرُ بالمظاهرةْ
إليكِ قبلة من عاشقٍ
عليكِ أفضلُ السلامْ.

4

متفرقات

"قصائد أخرى"

ليس غير الثورة

يا بيتي المهجورْ
يا كهفًا ينعقُ فيهِ البومْ
يا وطني المقبورْ
يا قفصًا يا سورا
يا عينًا لم تعرفْ نورا
يا أبكمْ
يا جسمًا لا يتألَّمْ
لا تشكُ عذابَ الهَجْرْ
قد أشكو آلامَ الغربةْ
يا وطني
يا وطنَ العِمَّة والقُبَّةْ
والمئذنة العمياءْ
يغرقُها مدُّ الليلِ القاسي
يغرقُها: يقتلُ إحساسي
والخنجرُ كَلِماتٌ تروي:
"الدنيا وطنُ الكفّارْ

ولنا جنَّاتٌ تبهرْ
في دنيا عالَمِنا الآخرْ
في دنيا ما بعدَ القَبْرْ".
كالجرثومة
ما أبغضَها كلماتْ
وحروفًا سودًا مسمومةْ
ماذا ترقبُهُ مني؟!
ماذا يا وطني؟
هل أغدو "شمشونًا" آخرْ؟
هل أغدو قلبًا من نارْ
نارِ الأحقادِ الموروثةْ؟
تشوي آلهة الظلمِ تهدُّ عروشَهْ
يا ليتَ الكفَّ طليقةْ
يا ليتَ الحلمَ حقيقةْ
حلمَ الليلةْ..
آهٍ لو نصنعُ أسطورةْ
فندقُّ جميعَ الأبوابْ
بابًا.. بابًا.
نهتفُ بالشعبِ: "استيقظْ

لا لتسبِّحَ أو تنذرَ صومًا للهْ
قد صمتَ سنينًا جمّةْ
كم رحتَ تفتِّشُ عن لقمةْ؟
كم أمسيتَ بدونِ سراجْ؟
أنفاسًا في جوِّ العتمةْ
باللهِ أما قاسيتَ الموتْ؟
ما عطشتْ روحُكَ للدَّمّ؟
إني أدعوكَ لشربِ الدَّمّ
اشربْ.. وابنِ اليمنَ الحرَّةْ
فوقَ الأنقاضْ
أنقاضِ قصورِ الأسيادْ
يا شعْبْ
يا جيشًا ما وجدَ القادةْ
إني أدعوكَ إلى الثورةْ".

1961م

عندما يتكلّم الشعب

كـــان الـــسكونُ كـــأبوابٍ مـــسمَّرةٍ
وراءهـــا يختفـــي سِـــرٌّ ويعتـــصمُ

بالليـلِ يُلقـــي وشـــاحًا مـــن غلائلِـــهِ
فترتديـــهِ حقـــولُ الكـــرمِ والقمـــمُ

حتـــى إذا ومـــضتْ في الأفـــقِ بـــادرة
فأجفـلَ الصـمتُ والإطـــراقُ والظلـمُ

تســاءَلَ الشـارعُ المـذعورُ في عجـبٍ:
مـن فـارسُ الليلِ؟ما الآتي أيا "نُقُـمُ"؟

ولم تمـــرْ ســـاعةٌ إلاّ وقـــد نطقـــتْ
مـــرارةُ الأمـــسِ والأحقـــادُ والألمُ

تلفـَّتَ القصـرُ مـأخوذًا علـى لهـبٍ
عـلى دويٍّ.. علـى الجـدرانِ تنهـدمُ
عـلى طريـــدٍ دعـــا أفـــرادَ حاشـــيةٍ

فلــم تجبْــهُ، ولم تــسمعْ لــه خــدمُ

فــلاذَ بــالكوخِ بــالأحراشِ معتــصمًا
فيصــرخُ الكــوخُ في عنــفٍ ويحتــدمُ

لم يبــقَ في الأرضِ في الــدنيا لكــم وطــنٌ
ولا لــدى زمــنٍ يــومٌ بقــى لكــمُ

يــا مــن رقصــتم علــى أشــلائِنا زمنــًا
ألــيسَ مــن دمِنــا قــد وقَّــعَ الــنغمُ؟

موتــوا لتحيــا علــى عــزٍّ وفي شــرفٍ
تلــك الجمــوعُ التــي في العنــفِ تحتــدمُ

قد يسكتُ الشعبُ أحيانًا على مضضٍ
وقــد يمــوتُ ليحيــا ثــمَّ ينــتقمُ.

ليت..لا

يا ليتَ ما التقينا وأخطأتْ يومًا خطى الزّمانِ
إني أضعتُ نفسي وضيَّعتْ خطوتَي مكاني

تلفتَّي وسائلي ساقيكِ يا أميرة الحِسانِ
وسائلي عيونًا عني وعن مكاني

وأوقفي رياحًا طليقة العنانِ
فربما عبيرٌ ينساب من زهرة المغاني

و ربما خيوطٌ في الثوبِ عروتانِ
أو فتحة مجنونة بصدرٍ تبدو وطائرانِ

قد أبصرا عواصفي حريقي وموكبِ الدُّخانِ
فإنني فاتنتي رحلتُ. حلَّقتُ في ثوانِ

وصـــارَ لي جنـــاحٌ أهدتْـــهُ منـــكِ خـــصلتانِ
حـــــزني أعـــــزُّ شـــــيءٍ يحملُـــــهُ كيـــــاني

***

تركتُـــــهُ وحيـــــدًا في الليـــــلِ كاليتيـــــمِ
ورحـــــتُ في فـــــضاءٍ أصـــــيحُ بالتخـــــومِ

كمنـــــشدٍ محـــــالًا شمـــــسًا مـــــن الغيـــــومِ
حـــتى بلغـــت دنيـــًا حقـــلاً مـــن الكـــرومِ

عليـــهِ ألـــفُ ســـورٍ غنـــتْ هنـــاكَ يـــومي
وعـــدتُ مـــن طريقـــي مـــن ذلـــكَ الـــسديمِ

أجتـــرُّ في خطـــايَ قلبـــًا مـــن الهـــشيمِ
أصـــيحُ: يـــا عـــذابي أقـــولُ: يـــا همـــومي
عـــودي فقـــد رجعـــتُ وعـــانقي وجـــومي.

1961م

يمنيّة في "القاهرة"

رأيتُ فيها شاهقاتِ الجبالْ
رأيتُ وديانَنا
حقائبًا من عبيرْ
جداولًا تعدو وراءَ الظلالْ
سنابلاً في الحقولْ
بلادُنا عندما
تصحو على الشمسِ بعدَ السيولْ
لمحتُها من هنا
شممْتُ ريحَ "البُنِّ" و"التّالبِ"
فيا عيونُ اسرحي
ويا عروقُ اشربي
"صنعاء" هنا كلُّها
توشَّحتْ بالكرومْ
"صنعاءُ" عند النجومْ
بما سأشدو لها

"بلقيسُ" مرّت هنا
في هودجٍ من شذا
في موكبٍ من سنا
منهُ بعيني رؤى
وفي شعوري صدى
"بلقيسِ" والصولجانِ
عينانِ لا تهزمانِ
دونهما نجمتانِ
أو باقةٌ من أغاني
تدعو إلى العودةْ
يومًا إلى موطني
فربما.. ربما
ألقى بها جنَّتي.

القاهرة 1959م

من قصيدة "حياةٌ بلا أشواق"

هذا المساءُ كلُهُ جحودْ
لعنتُهُ وكائنًا مثلي يمجُّهُ الوجودْ
لعنتُ كلَّ ساعة تمرّ
أيُّ حياة كالمياهِ في الحفرْ
تأسّنتْ ودبَّ في أوصالِها الضجرْ
لعنتُ فرحة النجومِ في السماءْ
صرختُ بالغيومِ: حوِّلي
باللهِ ضحكَها إلى بكاءْ
هتفتُ بالرياحِ: ازحفي على الحقولِ في جنونْ
ومزّقي زنابقًا وكسّري غصونْ
لأنني أبغضتُ كلَّ ما يباركُ السكونْ

1958م

أغنيةٌ حزينة

كلَّما أوغلتُ في داخلِ نفسي
ريشتي تهتزُّ أو يلجمُ حسّي
فكأني نادبٌ موتاهُ يمشي
في ظلالِ الرعبِ من رمسٍ لرمسِ
آهِ كم أغلقتُ بابي
عن حكاياتِ عذابي
فلماذا تطرقُ البابَ تلحُّ
آهِ لو يسكتُ جرحُ
أيُّ شيءٍ سوف أحكي
أنا لو عرَّيتُ ذاتي
وتمزَّقْتُ وراءَ الكلماتِ
لا تسلني أين شعري؟
أين أحلامي؟ وماذا قد بنيتْ؟
تلك أشعاري وأحلامي

كأيامي تموتْ
مثل زهرٍ بدأ الريحُ شذاهْ
وشراعٍ شاطئاهْ
أبدًا ما سمعا يومًا نداهْ
عادَ لا يعرفُ شيئًا
أبدًا عن منتهاهْ
يسألُ الموجَ
ولكنْ ذلكَ الموجُ طواهُ.

1958م

أغنيةُ انتصار

لم أستجدِ خيالًا .. صورةْ
لم تلهثْ أنفاسي بحثًا عن أسطورةْ
يا قلبي "يا غصنًا لم يورقْ"
ما عانقَ يومًا عصفورةْ
إن لم تخفقْ بحروفٍ من نورْ
وتضيءَ الأفقَ المهجورْ
وتحرِّكَ إحساسي المبتورْ
فلتسكتْ بعدَ اليومْ
غني.. غني.. مزِّقْ أوتارَكَ يا قلبي
أطعمْها أشواقي للحبّ
أشواقي للفجرِ القادمْ
بعبيرٍ ما نشرتْهُ بعدُ براعمْ
وكذا أنتَ يا قلمي
إنْ لم تبحرْ عبرَ الطوفانْ

وترى أنقاضَ الأحزانْ
وتقهقهَ كالعربيدِ النّشوانْ
والليلُ جدارٌ يتهدَّمْ
فلتتحطَّمْ
إن لم تشهدْ أفراحي
أو تحفرْ قبرا
أدفن فيه جراحي
وتراني أرميها أثوابي السوداءْ
؛كي ألبسَ ألوانًا أخرى
بيضاءَ كقلبِ الإنسانْ
وأنا أستقبلُ أعيادي
وأرى إنسانَ بلادي
يصحو.. يبعثُ بعدَ الموتْ
فالدارُ ترحِّبُ بالقائدْ
والحقلُ يقولْ:
أهلاًبالزارعِ.. بالحاصدْ
يتحدَّى الظلمة و الإعصارْ

فتعلَّمْ يا قلمي منهُ الإصرارْ
وتصوَّرْ باللهِ شعورَ الفارسِ
بعد الأشواطِ يحوزُ السَّبْقْ
واللاعبَ إن نالَ المرمى
وطريحَ فراشٍ قامْ
نسيَ الآلامْ
اخضرَّتْ في عينيهِ الأيامْ
فكذا نحن في يومِ النَّصْرْ.

1958م

من أغاني "سيزيف"

لمَ نحيا؟
وأجدى منَّا الموتى
وراءَ الصمتِ ترتاحُ
فما هاجتها أشواقٌ
ولا أشقتها أوهامٌ وأشباحٌ
وحتى الجرحُ لم يعرفْ
طريقَ السيرِ للموتى
لمَ نحيا؟
وهذا اليومُ والآتي
كأمسٍ بالأسى عشناهْ
بلا معنى

وملَّينا حكاياهُ وملَّتْنا
يمرُّ العامُ بعدَ العامْ
حقولًا تزرعُ الأحزانَ
قد كانتْ لياليه
فلم نحصدْ سوى كفرٍ
بهذا العالمِ الممقوتْ
بزيفِ الزِّيْفْ
بأحدثِ ما تعلَّمناهُ من "لاهوتْ".

1959م

إلى الجموع في "السّعيدة"

الليلُ شارفَ التخومْ
واستسلمتْ نجومْ
لمخدعِ الكرى واستيقظتْ نجومْ
ولم أزلْ أعذبُ الحروفْ
وتارة أمزِّقُ الورقْ
وأستعيدُ ذكرياتْ
مشاعري أمستْ بها تدقّ
ذكرتُ يا رفاقُ قصّةْ
ترنيمة سمعتُها من النساءِ في البيوتْ
ومصنعًا حواهُ قبلَ أن يموتْ:
كان اسمُهُ "عتيقْ"..
"عتيقُ" ذلك الفتى الشجاعْ
من صارعَ الفناءَ بالذراعْ
مستقبلاً بصدرِهِ الرصاصْ
إليهِ مرسلٌ من غاصبِ الحياةْ

عدوٌّ دعوة الخلاصْ
من ذلك القرصانِ صاحبِ السفينةْ
من أشعلَ النيرانَ في مدينةْ
كما اشترى من خائنٍ مدينةْ
وأصبحتْ له القصورُ والحديقةْ
وداسَ ذكرياتِنا العتيقةْ
ولم يزلْ يحتلُّ أرضَنا
ولا تزالُ أرضُنا وجيعةْ
مقابرًا للثائرينْ
لتصبحَ الحياة من رمادْ
والموتُ يحرسُ اللُّصوصَ في البلادْ
لكنني هنا رأيتُ في الصباحِ أيها الرفاقْ
رأيتُ ذلك القرصانَ صاحبَ السفينةْ
معفَّرًا.. هنا تدوسُهُ مدينةْ
أرادَ أن يميتَ كلَّ نَبْضْ
ولم يجدْ سوى صواعقٍ ورعْدْ
لن يجنيَ الثأرَ من الجريمةْ
كما جنى الكثيرْ

بالأمسِ حينَ الرحلة القديمةْ
لعلَّكم سمعتموا أنباءَ بور سعيدْ!
اليومَ عندَ كلِّ فَجْرْ
تنتظرُ الصدورُ خفقة الأملْ
وأنتِ أيها الجموعُ في "السّعيدة"
أسيرة وراءَ سجنِكِ القديمْ
صابرة على البقاءِ في الجحيمْ
يا أيها الجموعْ
صانعة الجنانِ والنعيمْ
سيّانَ في "صنعاءَ"أو "عدنْ"
وغيلِ "با وزيرِ"أو "تُبَنْ"
ففي الشقاءِ كلُّنا "يمنْ"
جنانُنا الخصيبة التي على رحابِها
نحسُّ ليلَ غربة هناكَ لا تزالْ..
ملاعبُ القرصانْ والطغاةْ
وفي القلوبِ تستحثُّ دمعةً و"آهْ".

القاهرة –1956م

قلبٌ و باب

.1

لا تبتسمي
أبدًا في وجهِ الطارقْ
طارقِ هذا البابِ المغلقْ
طارقُهُ إنسانٌ مرهقْ
أخشى أن تغريهِ البسمةْ
وتشدَّ العينينِ إلى القمَّةْ
عيناهُ عُشٌّ للظلمةْ
حسبُ الطائرِ ما عندَهْ
حسبُ الطائر يا وردةْ
قلبي طائرْ
والليلُ.. اللَّيْلْ
قفصٌ مغلقْ
آهٍ ما أقسى جدرانَهْ
عذَّبَتِ الطائرَ جدرانُهْ
وهنا وهناكَ عيونٌ وسنانَةْ

ما زالتْ تحلمُ بالنورْ
قلبي يستهويهِ النورْ
قلبي هذا الطيرُ المسجونْ
ولقد يشدو والشدوُ حنينْ
موّالُ حزينْ.

2.

يحكي للناسِ سنينَ الـذُّلّ
أجيالًا عاشتْ للغُلّ
عاشتْ للَّيْلْ
"يا ليلْ.. يا ليلْ
قلبي هذا الطيرُ المسجونْ
أخشى أن يشدو ذاكَ الحالمْ
بربيعِ العامِ القادمْ
وربيعُ الطيرِ بعيدْ
وطريقُهُ أشلاءٌ وجماجمْ
يا وجهًا خلفَ البابِ المطروقْ
يا وجهَ ملاكْ
يا كنزًا في قاعِ الأحراشْ
وطريقي ما زالتْ بالظلمة مسدودةْ

لا تبتسمي
فأنا سلفًا أدري سرَّ البسمةْ
قد نعرفُ بَعْضْ
يومًا، ويجسُّ النبضُ النَّبْضْ
قد يحوينا ركنُ حديقةْ.

3.

وتمرُّ وجوهٌ وتقولْ:
هذان عشيقانْ
محظوظانْ
هذي أحلامٌ رومنسيّةْ
عالمُ "رميو"
عالمُ "جولييتْ"
ما عادتْ كلُّ الأحلامْ
في قلبِ صبيٍّ وصبيَّةْ
وأنا لي أحلامٌ جمّةْ
أحلامي..أحلامُ الأمَّةْ
شعبي أنّاتٌ ودموعْ
شعبي إنسانٌ يتمزَّقْ
في حقلٍ أو في مهجرْ

في سجنٍ أو معركة يقتلْ
يقتلُ والعالمُ لا يبكيهِ
أو يرثيهِ
يا وجهًا خلفَ البابِ المطروقْ
يا وجهَ ملاكْ
يا كنزًا في قاعِ الأحراشْ
قد طالَ حديثي
وبقلبي فيكَ سؤالْ
أحرفُهُ مازالتْ من نارْ
ويظلُّ خيالْ
في كلِّ مساءٍ يرتادُ الآفاقْ
ويفتِّشُ عن كلمةْ
قد آتي يومًا كالمعتادْ
وأدقُّ البابْ
وأقولُ لكِ الكلمةْ
ورجائي لو يغدو الحزنْ
بسمائي قوسًا للنَّصْرْ.

القاهرة 1957م

عندما نحزن

.1.

لا تقتلِ الأحلامْ
ما دامتِ الأيامْ
لم تنتهِ يا صاحْ
فحولَنا أفراحْ
والليلُ لم يغلقْ
البابَ دونَ الشَّمْسْ
فدعْ حكايا الأمْسْ
فتِّشْ لها عن رمْسْ
دعها بلا مأتمْ
تموتُ في الأعماقْ
قد تورقُ الأشواقْ
في تربة النسيانْ
وتنتهي أحزانْ
فالطيرُ قد يبكي

إذا رأى الأوراقْ
في الحقلِ تصفرُّ
والوردُ أشلاءٌ
يمجُّها نهرُ
والريحُ تذريها
حينًا على الطرقاتْ.

2.

لكنَّ هذا الطيرَ إذ يحزنْ
لا يغرقُ الأحلامَ في الأحداقْ
لم يثنِهِ الإرهاقْ
يومًا عن الشَّدْوِ.

1956م

أيها النّابشُ حزنًا

.1.

أيها النابشُ حزنًا في فؤادي
بسؤالِكْ.. عن بلادي
وجماهيرِ بلادي
وأنا حاولتُ يومًا
قبرَ آلامي بأعماقِ السنينْ
مثلَ غيري من جموعِ النّازحينْ
من بلادي
لا تسلْني يا صديقْ
سوف أحكي والحكاياتُ حريقْ:
"بينما كنتُ أفكِّرْ
ذاتَ يومٍ وخيالاتي تثرثرْ
ليراعي وتعيدُ الذكرياتْ
وأنا أحلمُ بالعودة للأرضِ الحبيبةْ
لأرى شعبي يناضلْ
لأراهُ غيرَ إنسانِ القبورْ
ذلكَ الإنسانُ كم يومًا بغضتُهْ

وبكيتُهْ
عندما كانَ يموتْ
ببساطةْ
كم حقولٍ نسيتْهُ ونساها.. وبيوتْ
وصغيرٍ مثلُ دمعة.. مثلُ خفقةْ
عـذَّبتْ أضلعَ أمِّهْ
عندما يستفهمُ
عن أبيهِ في المساءْ
ولكم تُطرقُ أمٌّ تسألُ الليلَ الجوابْ
ويظلُّ الليلُ صمتًا وعذابْ".

2.

منذ أيامٍ قريبة
طارَ بي هذا البناءْ
ضربَ الأسطولُ في هذا المساءْ
قلعة في "قعطبة"
كلُّ بيتٍ في بلادي "قعطبةْ"
كلُّ قلبٍ "قعطبة"
وبكينا بالنبأ
وفرحنا بالنبأ

كان حلمًا أن أرى شعبي يثورْ

كالعواصفْ
عندما تنطلقُ
ودجىً يحترقُ
يا لَحلمٍ قد تحقَّقْ
وبعينيَّ تألَّقْ.

3.

ذاكَ شعبي يتحرَّرْ
أبدًا ما عادَ نفسًا تزهقُ
أو شفاهًا تطبقُ
دون أنْ تُذرفَ في العالمِ دمعةْ
دون أن تبلغَ سمعَهْ
صرخة مختنقةْ
بسجونٍ مغلقةْ
وبقلبِ المشنقةْ
وبأرضِ المعركةْ
في "حريبَ" المرهقةْ
فعزاءً يا "حريبْ"
كلمة أنتِ نديّةْ

بدماءٍ من ضحيّةْ
كلمة دقَّتْ بسمعِ العالمِ
وحكتْ قصة "جُوني" المجرمِ
يا صديقي
لم أكنْ وحدي أعيشُ الذكرياتْ
أنا في المنفى.. وفي المنفى رفاقْ
نلتقي كلَّ مساءٍ وصباحْ
فنضمِّدْ
ما حملْنا من جراحْ.

الفدائيّ

إلى صديق فدائي أصرّ على ترك الدراسة
وقام بتوديع أصدقائه، وغادر إلى قلب
المعركة في "بور سعيد" ضد دول العدوان
الثلاثي المجرم سنة 1956م.

كان في عينيهِ عزمٌ وانفعالْ
عندما شدَّ يدي
فتدفَّقْ
ألفُ إحساسٍ تدفَّقْ
حين قالْ:
لم يكن للحقدِ في قلبي مجالْ
قبل أن يهبطَ ذا الغازي عليَّ
يخنقَ النورَ الذي في مقلتيَّ
سارقًا وردَ ربيعٍ من يديَّ
يا صديقي
لم أحسَّ الحبَّ يومًا لبلادي
مثلما أحببتُها هذا النهارْ

وأنا أمشي عليها كالصواعقْ
أسحقُ الأعداءَ.. أجتازُ الخنادقْ
دون أعلامي بنادقْ
ونفوسٌ ثائراتْ
ثورة النيرانِ في قلبِ الحرائقْ.
قالَ هذا وتقدَّمْ
مقسمًا باسمِ الشهيدْ
وبأشلاءٍ ودمْ
لن يمرّوا غيرَ شيءٍ من مزقْ
ساقطاتٍ فوق دربي كالورقْ
وأنا باقٍ عليها لن أموتْ
ثائرٌ تشدو به دنيا حقولٍ وبيوتْ
وعدوِّي كخيوطِ العنكبوتْ
كلَّما تشرقُ شمسٌ
نَفَسٌ منهُ يموتْ.

إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا

وإلى أن يعودَ إلى النيلِ مجراهُ
دجلةُ ينهضُ من كبوةٍ
ويخرجُ من نفقٍ مظلمٍ
ويروي قرى الرافدين العطاشْ
ويعلو النخيلُ الذي طالَ إطراقُهُ عند شطِّ العربْ
يستوي قامةً رافعًا رأسَهُ
و "سيفُ بنُ ذي يزنٍ" قربَ "صنعاءَ"
يلقى أخاهُ "عبدَ المطلبْ"
فتنزلُ من أفقِها سورة "الفيلِ"
تصحو رمالُ الجزيرةِ
تشتقُّ منها الحجارةْ.
فعوثوا ولوثوا
وتيهوا جنونًا ورقصًا وهزًّا
على أيِّ لحنٍ نشازٍ
كما شاءتِ الفرقُ المستعارةْ

وقائدُها سيدُ العازفينَ
ومجموعة الراقصينَ الدُّمى
ولكنها الساعةُ القادمةْ
ستأتي ولا ريبَ فيها
ولا شكَّ في الموعدِ المرتقبْ
معَ خيرِ أمَّتِكم يا عربْ
ستخرجُ من ليلِها
وتشرقُ من غارِها
وتأتي ومن كلِّ فجٍّ عميقْ
وتصعدُ من قلبِ هذا الحريقْ
ومنجمِ هذا الغضبْ
وترفعُ راياتِ "اللهُ أكبرْ"
ولو بعد حينٍ من القهرِ في زمنِ الجاهليّةْ.

الرحيلُ في المجهول

أيا سورًا نحاولُ هدمَهُ حينًا
ويبقى ليسَ ينهدُّ
ويا ليلاً على أفقِ الزمانِ الرَّحبِ يمتدُّ
ويا سيفًا سقيناهُ
دمًا منَّا نزفناهُ
وواصلنا مسيرًا في فيافينا
إلى أينَ؟ إلى أينا؟!
ندقُّ البابَ بعدَ البابْ
رفعنا أذرعًا يومًا وصلّينا
فعادتْ من فضاءِ اللهِ
فارغةً أيادينا
تسلَّقْنا ذرا "الأولمبْ"
حملْنا ألفَ مزمارِ
وغنَّينا
وقلنا: أينَ "أفروديتْ"[1]

1 أفروديت= إلهة الجمال والحكمة لدى الإغريق.

ألم تعرفْ لما جينا؟
ألم تلمحْ سؤالًا في مآقينا؟
لكم نشقى بما يشقى به بحرُ
سكونٌ بعد إغوارِ
ومدٌّ بعدَهُ جزرُ
وألقينا إلى الرِّيْحِ
شراعًا دَمَّرتْ فيهِ
قواهُ رحلة التيهِ
وغادرْنا إلى "بابلْ"
وناديْنا:أيا "عَشْتَرْتْ"
ظماءٌ يستبدُّ بنا
هجيرٌ لافحٌ قاسِ
عنيفٌ كادَ لا يبقي لنا نبضًا بإحساسِ
وها قد مزقتْ أوتارْ
إذا لم تسمعي أنتِ
حنينَ الحقلِ للأنهارْ
فمن ذا ينزلُ الأمطارْ
فمن ذا ينزلُ الأمطارْ؟!

مع القمر

حتى ولو هبطتَ يا قمرْ
ولو نزلتَ هذه الحفرْ
تسألُني باللهِ أو بمن أُحبّ
تقولُ لي:
ماذا عن الإطراقِ والشرودِ والسهرْ
لقلتُ يا قمرْ:
ماذا إذنْ تعرفُهُ
عن غابة عريانة الشجرْ
وفارسٍ جوادُهُ كبا
وسيفُهُ انكسرْ
وأنتَ في سمائِكَ الجميلةْ.
لو قلتُ: يا رياحْ
قفي ويا طيورًا حلِّقي بلا جناحْ
لكانَ ما تريدْ
يا أيها البعيدْ
يا أيها البعيدُ..يا قمرْ.

إلى عُمّال بلادي

يا أملاً يشرقُ في برعمْ
يا نجمًا تتبعُهُ أنجمْ
الليلة عيدُ
دربي أرضي.. نغمٌ ونشيدُ
فاستلهمْ يا قلمُ استلهمْ
هذي قبضاتُ الشغِّيلةْ
أحفادُ بناة السَّدّ
صنّاعُ الغدْ
دقّتْ أبوابُ المصنعْ
وإلى الآفاقْ
طارت بخيالي أغنيةٌ
وهناكَ..هناكْ
في ليلِ رحابي
بادلتُ الدمعة أحبابي

ورأيتُ مشاعلْ
بذُرَا "باجلْ".
هزَّ الحاضرْ
صوتُكِ "باجل"
مرحى.. مرحى أوّلَ عاملْ.

القاهرة 1957م

المجدُ للأطفال

إلى الطفل الشهيد محمد الدرَّة، والشهداء الذين واصلوا المقاومة الباسلة، واستشهدوا دفاعًا عن الحق والأرض.

صغارٌ ولكنَّكم عظماءْ
ولكنَّكم أنبياءْ
ورسْلٌ منَ اللهِ والأرضِ جئتم
تعيدونَ للبيتِ أصحابَهُ
وللحقلِ أشجارَهُ
فيا أنبلَ الناسِ
ويا أشجعَ الناسِ طرًّا
وسادةَ كلِّ الطوائفْ
فهل غيرُكم من منازلْ؟
وهل غيرُكم من مقاتلْ
ولو بالحجارةْ
بأمضى سلاحِ ديكم..
سلاحِ الإرادةْ؟
وصيحاتُكم في وجوهِ الغزاة الحثالةْ:
" هذه أرضي أنا

وأبي ماتَ هنا
وأبي قالَ لنا:
مزِّقوا أعداءَنا"[1].
أضيئوا أضيئوا
فقد أوغلَ الليلُ فينا
ومن حولِنا
فأنتم نجومٌ
وأنتم سماءٌ
وكلُّ الوجوهِ إليكم
خشوعٌ.. صلاةٌ لكم لا عليكم
إلى مطلعِ الفجرِ إلى عودةِ "القدسِ"
سيروا
وثوروا
وثوروا
وثوروا.

1 من قصيدة للشاعر كمال عبد الحليم.

طقوسٌ في الظلام

إلى الأخ الشاعر الكبير د. عبد العزيز المقالح الذي حركّت المياه في الجذور رائعته "قصائد لزمن الطفولة"، وأيقظت كوامن ذكرياتي بما جسدته من مشاهد لحياة الطفولة في القرى المتناثرة على تلال وسهول بلادنا.. تلك الحياة الحافلة بالبراءة والبهجة التي تطغي بوهجها على ظلمة وثقل البؤس رغم حدة قساوته ووحشيته، تلك القصائد الرائعة التي جاء فيها:

"... يا صاحبي قِفْ قليلاً
وهيا نعودُ لأيامِنا الغافياتِ
على شاطئِ الزمنِ البكرِ
أيامَ تلكَ الظلالِ الجميلة
أيام تلك العيونِ الخجولةِ
أيامَ لا نرتدي غيرَ ثوبِ البراءةِ
أيامَ نستخدمُ اللُّغة الصامتةْ".

من أقصى تخومِ الأرضْ
وتحتَ الأرضْ
من المنفى أو الوطنِ
أتيتمْ معشرَ الأحبابِ
والأصحابْ
فأهلاً يا ضيوفَ العمْرِ
تجمعُنا،

وتؤوينا رحابُ الليلِ والظلمةْ
وها أنتم، وها أنا ذا
أصافحُكم..أعانقُكم
أحدِّثكم أنا وحدي
وأمّي عندما تأتونَ تسبقُكم
وتلك القرية الثكلى
بيوتُ تندبُ الأيامْ
ومن طاروا فما عادوا
وتلعنُ أثقلَ الساعاتْ
إذا ما شحَّتِ الأمطارْ.
وفوقَ حوائطِ المبكى
أطلَّتْ في الدجى شمسٌ
وآهٍ ما أحبَّ الوجهَ والطلعةْ
أتتْ من ذلك المرعى
سنابلُ قطٌّ ما لمستْ
وغصنٌ بعدُ لم يقطفْ
فأتركُ مجمعَ الأصحابِ
والأحبابْ
ومن أمّي طلبتُ الصفْحْ
لأتبعَ ربّة الأغنامْ
فنعدو ثمّ نقتربُ

وخلفَ مشارفِ الأحجارْ
وعندَ تسلُّقِ الأشجارْ
لكم يحلو لنا وقتٌ
و كم يحلو به اللَّعبُ
تباركُهُ سماءُ اللهِ
والأمطارُ والسحبُ
وكم طاردتُها حينًا
ويشهدُ ذلك الجبلُ
فعندَ "الثالبُ"المورقْ
وفي الأنفاقْ
أقمنا ملكَنا يومًا
وراية حبِّنا خفقتْ
وكانتْ أجملَ الأيامْ
توارتْ دونَ أن أدري
وحتى في لقاءِ الليلْ
سريعًا مرّتِ الأحلامْ
لأن الفجرَ أدركَها
ومزَّقَها
فأبكاني
وأفشى بعضَ أحزاني

حاملُ الهلال والصليب وحده

إلى فلسطين العربية التي تصارع
في "كامب ديفيد" الثانية.

لمن تدقُّ هذه الأجراسْ
أو تصرخُ المآذنْ؟
أندّعي مناقبَ الإنسانْ
والحبَّ والإيمانْ
والذئبُ في دمائِنا
يعوي..ويصهلُ الشيطانْ؟
لمن نقيمُ هذه المحافلْ
وتضحكُ الأضواءُ خارجَ النفوسِ والبيوتْ
وكلُّ شيءٍ منَّا وحولَنا يموتْ؟
ما هذه الشجيرةُ المصطنعةْ
قد ألبسوها خضرةً مخترعةْ؟

وشجرٌ للهِ في القفارْ
يواصلُ السفرْ
بحثًا عن المسيحِ والمطرْ
أو عاريًا يؤرِّقُ الحقولْ
يبكيكَ يا "محمّدْ"
يبكيكَ يا "يسوعْ"
فتنخرُ الدِّيدانُ أصلبَ الجذوعْ
فلتعصفِ الرياحْ
تأتي على بقيّة الهياكلْ
فحاملُ الهلالِ والصليبِ وحدَهُ
في "القدسِ" في "حيفا" وفي "الخليلْ"
يموتُ أو يقاتلْ.

على أبواب عام جديد

أرانا موضعين لأمر غيب..
"امرؤ القيس"

مــا قيمــة التحليــقِ والتجــوابِ
وبلـوغُ نجـمٍ أو ركـوبُ سـحابِ؟

والليــلُ يوغــلُ في طريــقِ فنائِنــا
والفــأسُ تشهــرُها يــدُ الحطّــابِ

تهـوي عـلى السـيقانِ في أشـجارِها
وتحيــلُ خضرتــَها إلى أخــشابِ

ترمــي بهــا في القــاعِ دون ترقــُّبٍ
وسـؤالِ أوراقٍ علــى الأعــشابِ

وتمــزِّغُ الزهــرَ الجميــلَ تشفِّــيًا
مــن لونِــهِ وعــبيرِهِ الجــذَّابِ

مــاذا أحــبُّ وقــد رأيــتُ أحبــَّةً
تنــأى بــلا عــودٍ إلى الأحبــابِ

هيهـاتَ أن يقـوى عـلى اسـترجاعِها
وإعــادةِ النــبضِ البريــقُ الخــابي

وجــهُ الحيــاة نمجُّــهُ ويمجُّنــا
فأكــادُ أصرخُ هاتفــًا بــصحابي

مــا قيمــة العمــرِ الــشقيِّ وأفقُــهُ
متــــدثرٌ بــــسحابة وضــــبابِ

تترعــــرعُ الآلامُ في أحــــضانِهُ
ويــشيرُ لي بخنــاجرٍ وحــرابِ

مــن ذا عويــلُ الثــاكلاتِ يــسرُّهُ
ويهــزُّهُ طربــًا أنــينُ مــصابِ؟

لكــنني أدري بــأنَّ وجودَنــا
وهــمٌ، وأســئلة بــدونِ جــوابِ

مـازالَ حتـى اليـومِ يُعجـزُ عالمـًا
ويكـذبُ القـسِّيسَ في المحـرابِ

"أأغـنِّ" للعـامِ الجديـدِ وطيُّـهُ
مـا لستُ أعرفـُهُ مـنَ الأسـبابِ؟

أم إننـي أبكـي علـى عـامٍ مـضى
وفيـهِ مـا فيـهِ مـنَ الأتعـابِ؟

مـاذا إذن يـا راحـلاً مـن عمرِنـا
أو قادمًـا يمشـي علـى الأبـوابِ؟

ملحقات

يا حلو يا اخضر اللون

غناها أحمد بن أحمد قاسم

يا حلو يا اخضر اللون
من أمس أنا بحلم
بحلم وأتمنَّى ذا اليوم
يا مَحُسن السمرة..

سمرة واحد لواحد
لموُّا الصدور..
وطروحوا السوعد
والعين وسط العين
العين تقرأ القصائد
ومديت أنا إيدي على العناقيد
صنعاء هنا كرومها قبالي
شسقيها من قلبي ومن خيالي

وأنسى عذاب الأمس والليالي
لاقيت أنا روحي واستراح سؤالي

رابط الأغنية على اليوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=wvOHlHuW2v0

يا بدر يا عديني

غناء: إسكندر ثابت

يا بدر يا عديني
جننتني وشليت
شليت نوم عيني
يابدر ياعديني
من الصباح لونك
والسحر في عيونك
مكتوب على.الجبين
قلبي معاك خذته
والليل انا سهرته
وحدي مع شجوني
اشكي لمين هجرك
حيرتني بأمرك
وانا عليك صابر
بيني وبينك أسرار

في داخلي لهيب نار
وانت ولا انت فاكر
الليل والخميلة
زهورها الجميلة
تحكي معاك غرامي.
يدي بيدك تعاهد
والنجم كان شاهد
وانا على كلامي

رابط الأغنية على اليوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=dO60ZiGDZos

العودة من الأحلام المفقودة:

في رثاء عبد الغني علي

حلمتُ أنني هناك
مجنحًا محلقًا
وحيث كان الملتقى
تحوطه مواكب الشموس في السماء المشرقة
فمالها تلك السماء أصبحت مهدمة
والأرض تحتها مقفرة ومظلمة
ولم أعد أراك
أوآه في الحقول أو سواك
ولم أزل أذكرها مجالس اللقاء
وأذكر القرى مواطن الشقاء
أذكرها ملاعب الطفولة

فوق ضريح الذكريات
أوآه تسقط البطولة
ما كان أحسن الربوع
رغم كآبة الجفاف قحطها والجوع
يجرفني الحنين
وإنما كم يصعب الرجوع
ما كان أحسن الأوقات والأحلام
بما نريد أن نكون[1]

1 – صحيفة "الأمل"، صنعاء، العدد (146)،1985/10/13م.
نقلا عن سلطان أحمد زيد /كتاب عبد الغني علي، صـ 135

شهادات

1 ـ

في حضرة المرحوم الأستاذ عبده عثمان محمد:
عندما يجتمع الأدب والشعر بالسياسة والدبلوماسية
"السياسي الشاعر".

السفير عبد العزيز عثمان المخلافي

الأمين العام –

غرفة التجارة والصناعة العربية الألمانية

قليلون هم الأشخاص الذين يتركون آثارًا دائمة عليك عندما تلتقي بهم وتظل ذكراهم والخبرات التي حصلت عليها منهم مصاحبة لك خلال مسيرتك المهنية وحاضرة أيضا في التأثير على المسار الحياتي والمهني.

حالفني الحظ أن أعمل مع إحدى هذه الشخصيات النادرة الأستاذ عبده عثمان محمد، حيث كان أول لقاء شخصي لي معه في صبيحة يوم الإثنين الخامس من يوليو 1993م، في مكتبه بسفارة الجمهورية اليمنية في مدينة بون. لكن معرفتي بالأستاذ عبده عثمان محمد كانت سابقة للقائي الشخصي معه لسببين:

الأول مكانة الأستاذ عبده عثمان محمد كرجل دولة من الطراز الرفيع بصفته أول وزير لشؤون الوحدة اليمنية في الجمهورية العربية اليمنية في العام 1967م، وسفيرا لها في أكثر من بلد مهم ومؤثر على مستوى المنطقة العربية وعلى مستوى العالم، بداية من العراق مروراً ببكين ثم موسكو وإلى أن غدا سفيرا للجمهورية اليمنية لدى جمهورية ألمانيا الاتحادية.

كان لاسم الأستاذ عبده عثمان، بالنسبة لي ولزملائي الدبلوماسيين الشباب في وزارة الخارجية وقعٌ نطمح أن نصل إلى بعضهِ؛ نظراً للنجاح الذي حققه والسمعة الرفيعة التي حصدها في أوساط موظفي وزارة الخارجية.

ثانياً، مكانة الأستاذ الأدبية والمعنوية في الأوساط اليمنية بمختلف مشاربها السياسية والفكرية، حيث يعُد الأستاذ عبده عثمان محمد من الآباء المؤسسين لليمن الحديث والرعيل الأول الذي أنيط به تحرير الفكر الوطني وتوعية الشعب وتوجيهه حيث كان الأستاذ من أول الدارسين اليمنيين في القاهرة وبغداد وألمانيا، كما كانت له مساهمته البارزة في المشهد الثقافي اليمني حيث يصنف الأستاذ عبده عثمان محمد كرائد للقصيدة الحديثة في اليمن والتي كانتْ له اسهاماته البارزة فيها منذ الخمسينات، وله دواوينه المنشورة والتي منها "مأرب يتكلم" بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز المقالح. ودواوين "فلسطين في السجن"، "واحد من الناس"، وديوان "الجدار والمشنقة" والتي يحظرني منه الأبيات التالية:

وفي الزوايا الحالكة
أخوض أقسى معركة
أنازل الشيطان والملائكة
وتارة أعود للنذور
أسابق المؤذنين للصلاة ساعة السحر
أعدو فتبعد المنارة
تنعدم الأصوات والإشارة
أسقط في الظلام أندب الحضارة.

شاءت الأقدار أن أنتقلُ للعمل في سفارة الجمهورية اليمنية في بون وأعمل ضمن فريق عمل السفير الأستاذ عبده عثمان محمد مسئولاً عن الشؤون القنصلية ومعها أحيانا الشئون الثقافية.

لم يتجاوز لقائي الأول بالأستاذ 15 دقيقة،.. وهو بداية إيجابية لعمل مشترك استمر نحو 4 سنوات (1993-1997م).

كانت فترة عملي مع الأستاذ من أثرى التجارب في مسيرتي المهنية وحتى مسيرتي الشخصية. فإلى جانب الثقة التي حظيت بها من قبله تلقيت من الأستاذ التشجيع الكامل لتحمل المسؤولية باكراً دون تدخل في الأعمال اليومية وهو ما قابلته من جانبي باحترام كامل للمسؤولية والعودة إليه متى اقتضت الضرورة ذلك، ووجدته رجل الدولة والمسؤول الذي يبحث عن الحلول لا عن تضخيم التحديات سواء كان الأمر متعلقا بالجالية اليمنية أو الطلاب اليمنيين أو الألمان الذين يزورون اليمن للعمل أو السياحة.

لم يقتصر دعم الأستاذ عبده عثمان محمد لي على مستوى العمل والمسؤوليات التي أتولاها ولكن أيضا على المستوى الشخصي، ففي أول يوم لي في العمل في السفارة وفي أول لقاء لي مع الأستاذ طلبت منه الحديث مع أحد موظفي مكتبه من الألمان للاستعلام حول إمكانية تعلمي للغة الألمانية فأشار الى مديرة مكتبه السيدة باولي الفرنسية الأصل التي اقترحت معهد جوته القريب من بادجودسبيرج، الحي الذي يسكنه الدبلوماسيون في بون، وعلى الفور تواصلت السيدة باولي مع مديرة المعهد، وكانت المصادفة أن كورس تعلم اللغة للمبتدئين سيبدأ بعد ظهر نفس اليوم، ليكون خروجي من السفارة مباشرة الى المعهد. وفي معهد جوته بدأت رحلتي مع اللغة الألمانية التي كانت بداية تعرفي على الثقافة الألمانية ولم أتوقف عن دراسة اللغة إلا بعد حصولي على دبلوم اللغة الألمانية نهاية العام 1994م، وأن أحظى بتكريم خاص من مديرة المعهد؛ كوني أول دبلوماسي عربي يحصل على دبلوم اللغة الألمانية من المعهد.

إلى جانب الخبرة السياسية والثقافة العالية للأستاذ عبده عثمان محمد كانت له روح سمحه وتعامل إنساني عالٍ مع من حوله، ولا أزال أتذكر عندما شكونا إليه إزعاج أحد زملائنا الذي كان يقضي وقته متنقِّلًا بين مكاتب الدبلوماسيين في السفارة

ملقياً على مسامعنا محاولاته الشعرية الخاصة، كيف كان رد الأستاذ الذي ابتسم وقال:

"إن الشعر من الشعور فدعوا زميلكم يعبر عن شعوره".

كانت تجربتي بالعمل مع الأستاذ عبده عثمان محمد ثرية من كل الجوانب فبالإضافة الى الخصال الحميدة التي تعلمتها منه شهدت معه العديد من المواقف التي تبرز تفرد وطنيته وثقافته الرفيعة لعل أبرزها يتلخص في ثلاث مواقف:

الموقف الأول: وحدوية الأستاذ وإيمانه العميق والمخلص بالوحدة اليمنية والقدرة والكفاءة الكبيرة التي أدار بها السفارة أثناء الأزمة السياسية وحرب 94م، وأدار بها أيضا العلاقة بين الدبلوماسيين المنتمين للنظامين السابقين للوحدة.

الموقف الثاني: الاحترام الكبير الذي كان يحظى به الأستاذ في أوساط السفراء العرب والأجانب في ألمانيا من خلال خبراته الدبلوماسية والسياسية المتراكمة وإلمامه الأدبي الواسع حيث كان يتصدر بحديثة مجالس السفراء العرب.

الموقف الثالث: غزارة ثقافة الأستاذ واهتماماته الأدبية الواسعة والتي شجعتني على التواصل معه بشكل أكثر كثافة للاستزادة من ثقافته واطلاعه الأدبي إلى جانب خبراته الدبلوماسية والسياسية.

كان الأستاذ عبده عثمان محمد شخصية استثنائية بكل ما تحمله الكلمة من معنى وحالة فريدة من الصعب تكراراها. سياسي يعمل بحس شاعر وثقافة أديب، فكما تركت السياسة أثرها على أدبه وشعره، صاغ الأدب والشعر حياته الدبلوماسية والسياسية.

رحم الله الأستاذ عبده عثمان محمد وأسكنه فسيح جناته وكل الاعتزاز بدور أبنائه، وأخص بالذكر الأستاذة منيرة عبده عثمان التي تواصلت معي للإسهام في هذا الكتاب.

2
حين عملتُ مع العميد...

السفير عبد الله عبد الحميد المخلافي

عملتُ مع سعادة السفير الأستاذ عبده عثمان يرحمه الله في سفارتنا بالصين ثم في سفارتنا بموسكو. فلم يكن عميد السلك الدبلوماسي كغيره، بل كان مثالاً يحتذي به.

عرفته كما عرفه الجميع، مستقيماً، منكراً ذاته، حسن التعامل مع غيره، يحب الخير للجميع، لم يعرف البغض إلى قلبه طريقاً، فأحبه كل من عرفه، حتى أن دولة الصين الشعبية طلبتْ من اليمن تمديد فترة عمله كسفير فيها لسببين: الأول، احترامها للرجل، والثاني، عدم رغبتها في أن يكون عميد السلك الدبلوماسي من بعده نائبه السوفيتي وقد كان الخلاف بين الدولتين قائماً آنذاك.

عُرف الرجل بنزاهته ووطنيته، وكان ضمن السفراء الثلاثة الذين كرمهم الرئيس الراحل الشهيد إبراهيم الحمدي: الأستاذ أحمد الشجني، والأستاذ يحي المتوكل، والأستاذ عبده عثمان، رحمة الله عليهم أجمعين. ومن أبرز الأمثلة على نزاهته ثلاثة مواقف:

الأول: كنت مسئولًا ماليا بسفارتنا بموسكو، فكان حين يسافر في مهمات رسمية؛ بسبب كونه سفيراً غير مقيم في بولندا، وهنغاريا، وبلغاريا، إلى جانب عمله الرسمي سفيرا بموسكو، كان يكتفي بأخذ قيمة التذاكر وأجور الفندق فقط، ويرفض استلام بدل السفر القانوني المحدد بعشرة أيام.

والثاني: حدثني الأستاذ السفير أحمد الرضي، أن المرحوم حين عاد إلى اليمن كانت له مستحقات في إحدى الوزارات؛ كونه وزيراً سابقاً فيها، وكان معروفاً أن مرتبات الوزير السابق تبقى حتى

يعود فيستلمها دفعة واحدة، لكن الرجل حين أُخبر بتلك المستحقات رفض استلامها قائلاً:

وهل سأبقى وزيرا مدى الحياة؛ رغم تركي للوزارة واستلامي راتبي من مكان آخر؟!

والثالث: بسبب نزاهة السفير عبده عثمان لم يكن يمتلك مسكنا إلى أن حصل عليه من بنك الإسكان في عهد رئيس مجلس إدارته الأستاذ أحمد جابر عفيف يرحمه الله، وعند عودته إلى اليمن لم يكن يمتلك سيارة رغم شغله لمناصب وزارية عديدة وسفارات كثيرة. فعندما علم الرئيس الراحل علي عبد الله صالح يرحمه الله بذلك وصفه بالرجل النزيه وحول له سيارة برادو.

عرفت عن الرجل حرصه على المال العام، فكان إذا أقامت السفارةُ احتفاليةً في مناسبة ما، يعقد اجتماعاً، ويحدد المشتريات، وعند انقضاء الاحتفالية يذهب إلى المطبخ ويجمع ما بقى لحفظه إلى مناسبة أخرى.

كان العميد دبلوماسياً من طراز رفيع، يهتم بشئون بلده وبالجاليات اليمنية، ثم بأمور الأمة والعالم، ولذلك حاز على احترام جميع السفراء العرب والأجانب، وكان لا يتخلف أحد عن دعوة يتلقاها من السفير عبده عثمان، بل وصل الأمر إلى أن أغلب سفراء الدول العربية كانوا يصفون سفارة اليمن في عهده ....."ببيت العرب". كما كان إداريا من الطراز الأول، فكان إذا علم عن موظف بالسفارة النزاهة والأمانة، منحه مطلق الصلاحيات، بل حتى التوقيع المنفرد إن كان مسئولاً مالياً.

الذكريات عن المرحوم كثيرة ولكني اكتفيت بشهادتي من خلال إبراز مواقف الرجل وأخلاقه ومكانته ونزاهته وحسن أدائه كمسئول في عمله، وكإنسان في تعامله.

رحمة الله عليك أيها الأخ والصديق الأمين القدوة واسكنك فسيح جناته.

3

" مأرب يتكلم "

أ.عبد الرحمن بجاش
كاتب صحفي رئيس تحرير سابق لصحيفة الثورة
14 يونيو 2023

وعبده عثمان تكلم شعرًا ونثرًا من لحظة أن عرف نفسه مهتما بمستقبل اليمن الذي تاه الآن ولاتدري أين سيذهب به هذا المخاض العسير...

عبده عثمان محمد

الأديب الشاعر، الدبلوماسي المتميز عن جدارة ونضال خاضه جيله، حتى رأى علم ثورة 26 سبتمبر يرتفع عاليًا معلنًا انعتاق وطن من ربقة الإمامة والكهنوت وثقل الاستعمار جثم على صدره عشرات السنين وخرج بعد رش اليمنيين دماءهم من أجل الثورة اليمنية أنهارًا .

كنت لا أزال في الابتدائية ...الزمان

المكان :

اسم له دلالته الرمزية واللحظية : مستودع الوحدة العربية لابن الزَبّيرة قدس محمد طارش، وأنا أمر من أمام اللوحة كل يوم ذاهبًا إلى المدرسة " الثورة الابتدائية - الأحمدية سابقًا - وناصر الابتدائية التي كانت قنصلية أمريكية فتحولت بفضل الثورة إلى مكان هو جزء أصيل من شارع 26 سبتمبر الذي كان لحظتها يضج بالحلم الأكبر المتمثل بالذهاب إلى الأفق...

ذاكرتي تضيف يوميًا أسماء وأشكالًا تمر من شرفة صغيرة أمام المستودع أسجلها في ذهني وأذهب، حتى إذا حل النضج عرفتها عن قرب :

عبد القادر سعيد، عبد الرحمن محمد سعيد، سالمين، محمد سعيد عبدالله " محسن " العميد الأكوع، يحيى منصورأبو إصبع، عبد الغني مطهر، محمد الحيمي، أحمد أبو إصبع، عبده عثمان محمد، قاسم بجاش وآخرون كثر..

كنت أظل من أمام مستودع " القنال " للغنامي أتملى في وجه الرجل الذي يلبس بدلة كاملة وربطة عنق، متميزًا عن الآخرين ...وإلى بيت حافة إسحاق يأتي مع عبد الرحمن عبد الله الحكيمي عند الوالد، يومها كنت لا أدرك ماذا يقولون ...لكن شارع 26 سبتمبر بمسيرات ومظاهرات يقودها سعيد الجناحي، كنت أفهم منها أن حدثًا جللاً يحدث ...

كانت الثورة تدوي عاليًا بصوتها وفعلها، وعالمنا يتوزع بين الثورة وناصر، والحسيني المدرس العراقي يلقننا :

لنا الغد الموحد

لنا الصباح الأسعد

بشراك أن الموعد

عباس نحفظ ما قاله يراعة :

باسم هذا التراب

والفيافي الرحاب

والجبال الصعاب

سوف نثأر ياأخي ...

عندها وفي لحظات إلهام مواكبة للحلم، صدح الاثنان عبده عثمان والمقالح لينطق " مأرب " شعرًا ...

عبده عثمان سِفرمن نضال وثورة..

لم يتحول بعد البدايات إلى عميد الدبلوماسيين في بكين وموسكو عن عبث، فقد أعطى للدبلوماسية رونقها الثوري من تلك اللحظات ...

كما أعطى للكلمة الثائرة بعدها ...

كما كان مناضلًا صلبًا متميزًا، جاء من الزبيرة قدس إلى الكون الجديد الذي امتد يومها بين عدن وصنعاء مارًا من تعز...

وإنني إذ اكتب عنه، فأنا أكتب عن قهرنا على حلم ذهب ..

وأبكي حاضرًا لاملامح له ..

ومستقبلاً يبتعد عنا كل يوم ...

بخط اليد من ديوان
"فلسطين في السجن"

للشاعر

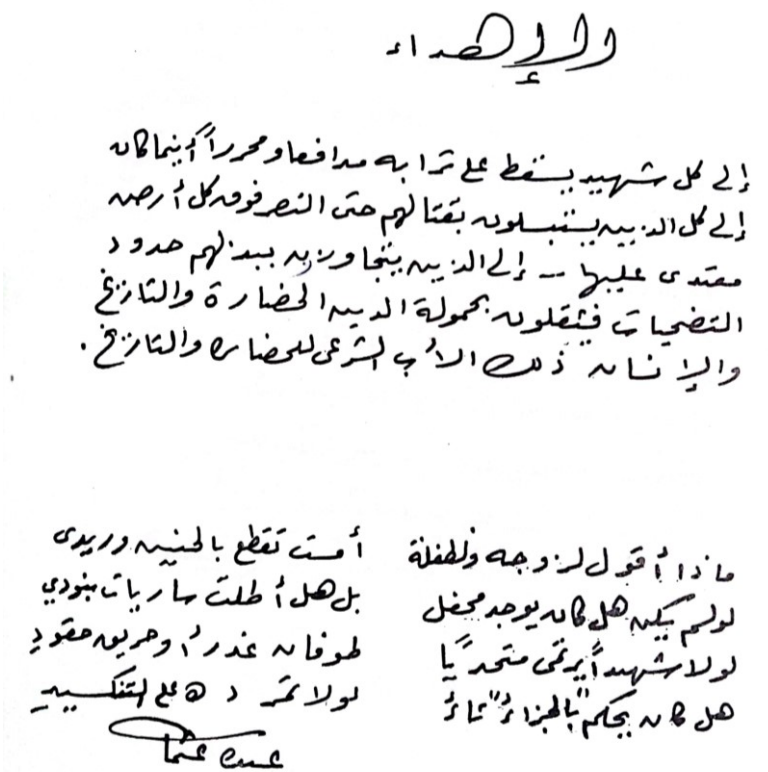

ماذا أردده وهل يبقى لشاعرْ
شيءٌ إذا انطق الرصاص بكف ثائرْ
فهتفت للشعب العظيم وجيشهِ
ولغيره قطعت إذا الهتفت حناجرْ
يا حارسَ الأرض الحبيبة فارسًا
في البرِّ أو أجوائنا العلياء طائرْ
حلق فصوت الشعب أعظم رشقهِ
خفقت بأجنحة الطيور من الكواسرْ
آمنت بالشعب العظيم خالقًا
ما زال يجبل بالكثير وليس عاقرْ

من قصيدة لي بعنوان

«آمنت بالشعب»

إبتهالات إلى الشعب

علمتني كيف الطيران للأمام
كيف الوقوف ساعة السقوط في الظلام
زودتني بكتب تفسر الأيام،
وكيف تصدق الأحلام
حددت لي وقت السكوت والكلام،
والصحو والمنام.
منحتني كل الشقاء والسعادة
والكفر والإيمان والعبادة،
علمتني أن أكتب القصيدة
طرية أو مرتيبة أو ثلاث
أحببت شوق الانتظار
والسير حتى الانتصار
علمتني أن أكره الركود
قبيل أن تطلع السحاب
أن أطلع النجوم في مجاهل الليال
يا شعبي العظيم

يا أيها الغفور والرحيم
عاشت كثير
معذرة إذا نسيت أسطراً من الكتاب
مغفرة فقد أتيت أفتي الكتاب من جديد
أقرأ من جديد
أصيح بالجموع من جديد
ما أجمل الأوقات والحياة
في عالم نسري به "تحكم الغزاة"
مذكراً بقاتل الوحيد والشهيد
فأرجم الطغاة
وأرفع الرايات
أهتف بالفناء للمتوجيه في القصور
بقايا أسفل العصور
صم بيننا خناجر على الظهور
عار و أي عار !!

فكيف لا نثور ؟؟
كيف لا نثور ؟؟
وننفض الغبار
نمتشق الحسام
مع محمد ﷺ على الجدار .

يا وطني
ما أروع الصمود في "عيبال"
والثمن في "صنعاء" والنار
والشعب في الشموخ عندما يطاول الجبال
وعندما يواجه كما صف جبار
أنت على مر الزمن العدو والحصار
نحمد لله البقاء منجب الأبطال
وعالماً بالمدى عي والجبال
وقادر إذا أراد

يا وطني و يا .. و يا -
أنشودتي المفضلة
سيتميل ألف يستميل
إلا تستضيف القتلة
مدينة الصمود يا لها
كانت وتبقى بطلة
"صنعاء" في مذابح الكروم والأوطان والبشر
"صنعاء" في ساجد مكبّد
"صنعاء" في مواقع على التلال ساهرة
"صنعاء" في مصانع
مدارس تسير بالطابور
إليك قبلة من ماشية
عليك أفضل السلام

الفهرست

عبده عثمان محمد 6
تقديم 22

1 الجدار والمشنقة

الحبّ سلام 32
الجدار والمشنقة 34
في ذكرى الزّبيري 36
قراءة جديدة في تاريخ سدّ (مأرب) 42
رسالة إلى (ناظم حكمت) 46
قلب في الجزائر 48
من أرض الآلهة والعبيد 50
بلادي 52
كلمات جمال 54
القحطُ وحاملاتِ الجرار 56
حوار مع الشهداء 58
أيام ما بعد الإجهاض 62
العقم 64
الدموع 66
من أغاني العودة 68
عطشان عند السواقي 72
مع الوجهِ الذي أرفضُه والوجه الذي أبحثُ عنه 74
الشعر و "فيتنام" 76

"نتاشا" 79
فلسطين تحتفل بأبنائها العائدين 81
كلمات إلى أولادي..... 86

2 مأرب يتكلم

لو دقَّت الأجراس 92
واحد من الناس 94
"5 حزيران" 97
السَّجّان واللَّيل 99
عندما يحكم الشعب 102
فتاة "صِبرِ" 105
الأصواتُ من الدَّاخل..... 106
الباحثون عن وجوههم 114
اعترافات 116
"رَدْفان" والقرصان..... 121
القيود 124
إلى شاعر فلسطين في الأرض المحتلَّة 126
القاتل والمقتول 129
على قبر "عبد الناصر"..... 131
أسئلة عن "ذي نواس" 134
أصواتُ الشهداء 136
دمعةٌ على "جميلة"..... 139
عودة "ذي يزن" 141

3 فلسطين في السجن

الشهيد 146
الشعب الثائر 147
كلمةٌ لا بدّ منها 148
خلاصة محضر دفاع 150
"فلسطين" في السجن 154
أصواتٌ من الأرضِ المحتلة 158
"غزّة" المنتصرة 168
رسالة من لاجئ فلسطيني 170
التطهير 174
ابتهالات إلى الشعب 180

4 متفرقات

ليس غير الثورة 186
عندما يتكلّم الشعب 189
ليت..لا 191
يمنيّة في "القاهرة" 193
من قصيدة "حياةٌ بلا أشواق" 195
أغنيةٌ حزينة 196
أغنيةُ انتصار 198
من أغاني "سيزيف" 201
إلى الجموع في "السّعيدة" 203
قلبٌ و باب 206
عندما نحزن 210

أيها النّابشُ حزنًا 212
الفدائيّ..... 216
إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا..... 218
الرحيلُ في المجهول 220
مع القمر 222
إلى عُمّال بلادي 223
المجدُ للأطفال 225
طقوسٌ في الظلام..... 227
حاملُ الهلال والصليب وحده 230
على أبواب عام جديد 232

ملحقات

يا حلو يا اخضر اللون..... 238
يا بدر يا عديني 240
العودة من الأحلام المفقودة: 242
شهادتان: 244
بخط اليد من ديوان "فلسطين في السجن" 253

عبده عثمان محمد

الأعمال
الشعرية الكاملة

بلادي شرودُ بفكري
وإطراقة في فؤادي
نداءُ يمشّي بسمعي
وأسلمَني للسُّهادِ
فأمشي وحيدًا
ويمشي معي كلُّ كونٍ ووادي
وتمشي جبالُ..
حقولُ موشَّحة بالسّوادِ
ويمشي حريقٌ كبيرُ
أنا فيه بعضُ الرّمادِ

أروقة
للدراسات والترجمة والنشر